فى النقد التحليلى

للقصيدة المعاصرة

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب . ٣٣ البانوراما - تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت . ص ب ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)

د. أحمد درويش

في النقد التحليلي للقصيدة المعاصرة

دار الشروق

تمهيد

تواجه القصيدة الحديثة فى الأدب العربى موقفا دقيقا إن لم يكن حرجا يتمثل فى اتساع الهوة شيئا فشيئا بينها وبين « المثقف العام» بل و « القارئ المتخصص» الذى ينفسح أمامه المجال لألوان أخرى من الإنتاج الأدبى يروى من خلالها الظمأ الفنى .

وهذه الهوة تعود إلى عوامل عديدة بعضها يخرج عن نطاق الأدب وتمتد جذوره لأسباب تتصل بظروف الحياة المحيطة بالجماعة البشرية ، وهى أسباب لا قبل لدارسى الأدب وناقديه بمناقشتها واطراح تصورات للإفلات من قبضتها ، وبعضها الآخر يدخل فى نطاق الأدب ومن الإنصاف أن يقال إن جزءا من هذا الجانب يرجع إلى موجات المد والجزر التى تحكم العلاقات بين الأجناس الأدبية فينتعش جنس منها على حساب خفوت جنس آخر، ولكن يبقى جانب كبير فى النهاية من عوامل هذه الهوة يعود إلى « القصيدة» ذاتها والتطور الذى لحق بها ، وحاجة هذا التطور إلى مزيد من التنظير والمناقشة والتحليل وهى مهمة النقد الأدبى بالدرجة الأولى .

والنقد فى سبيل أدائه لمهمته تلك أمامه طرائق عدة ، بعضها يحاول أن ينبع من القصيدة وبعضها يحاول أن يصب فيها ، أحيانا يتم اللجوء إلى مايدور من مناقشات حول نقد «القصيدة» فى آداب أخرى أو فى أزمنة أخرى من تاريخ هذا الأدب ، وهو مسلك طبيعى ، فالشعر العربى اليوم هو امتداد فى الهيكل التعبيرى العام لتقاليد تمتد خمسة عشر قرنا فى الأدب العربى وهو من ناحية ثانية متأثر بلقاء الثقافة العربية بالثقافات الحديثة الأخرى خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين . لكن جزءا من مخاطر هذا المنهج يكمن فى الخضوع لإغراء «التنظير» فى ذاته . والارتياح إلى الجانب « المثالى» من النظريات البعيدة والتركيز عليه ، وهى مخاطر يمكن أن تؤدى فى النهاية إلى تشكيل كيان « لنقد القصيدة» يختلف عن كيان « القصيدة» ذاتها ، ويبقى كل من الكيانين يدور فى فلك بعيد عن الآخر، وتقل بينهما أواصر الجاذبية وتبادل انعكاس الضوء .

وإذا كان من الحق أن يقال إن جانبا كبيرا مما كتب فى « النقد التنظيرى» الذى يحاول أن يصب فى القصيدة العربية ، قد حرر كثيرا من المفاهيم سواء منها التراثية أو الوافدة ، وكون

رصيدا أساسيا نعتمد عليه جميعا فى محاولة التقدم ، فإن من الحق كذلك أن يقال ، إن جانبا كبيرا من هذا « النقد التنظيرى » وخاصة ماكتب منه خلال العقدين الأخيرين ، قد دقت أسراره وصعبت الإفادة منه من عامة المهتمين بالقصيدة ونقدها فى كل الأحايين ومن خاصتهم فى معظم الأحايين ، وتحول بعض هذه الكتابات إلى ما يشبه النجوى الذاتية والشفرة الخاصة ، وهى إن لم تصبح عبئا على القصيدة فهى على الأقل ليست عونا لها .

وإذا كان هذا حظ الاتجاه الذى يحاول أن يصب فى القصيدة ، فإن الاتجاه النقدى الذى يحاول أن ينبع منها مازال أقل شيوعا ، لقد حاولت مجموعة متفرقة من الرواد أن تلقى البذور ، وأن تطرح بعض التجارب التى تنظر إلى العمل الأدبى على أنه « خلية » حية لها خصائص كامنة بها ، يقترب منها « مجهر » النقد مفسرا ومحللا ورابطا لها بخصائص خلايا مشابهة فى الزمن القريب أو البعيد فى الأدب المحلى أو العالمى سواء فى ذلك ما ينتمى فى هذه الآداب الى جنس القصيدة أو إلى الأجناس الأدبية الأخرى التى تربطها بها وشائج قوية فى عصر تبرز فيه الدعوة إلى إلغاء الحدود بين الأجناس ، أو إلى حقل الفنون الجميلة فى الموسيقى والرسم والتصوير ، والإمكانيات العلمية الهائلة التى غنيت بها تلك الحقول ومدى استفادة القصيدة الحديثة منها .

لكن هذا الاتجاه مازال بحاجة إلى أن تتضافر جهود كثيرة للنهوض به ، سعيا إلى أن تتكون على المدى البعيد نظرية نقدية للقصيدة الحديثة ، وهو الطريق الذى سلكته النظريات التى أصبحت تقليدية فى تاريخ الآداب ، فنظرية الشعر عند أرسطو هى نتاج تأمل طويل فى تراث الشعر الإغريقى . وآراء الحاتمى والآمدى والجرجانى وعبد القاهر نابعة من تأمل طويل فى أشعار المتنبى والبحترى وأبى تمام ومجمل التراث الشعرى العربى من قبلهم ، وكذلك كان الشأن عند كبار النقاد فى كل العصور ، تتبع ملاحظاتهم من العمل الأدبى وقد يبدو بعضها فى البداية جزئيا ، لكن الملامح تتجمع شيئا فشيئا ، لتتشكل من الخلايا المتفرقة جسدا متحدا . ولتضيف إلى تاريخ الفن الذى تنتمى إليه فكرة أو فقرة .

فى إطار هذا الاتجاه ، جاء هذا الكتاب ، محاولة لتبين بعض ملامح القصيدة الحديثة وكان المنهج الذى تصوره ، هو اختيار عشرة شعراء ينتمون إلى أربعة أجيال متداخلة فى عمر هذه القصيدة فى فترة تغطى نحو نصف قرن من تاريخها ، ويمكن تصور الأجيال ـــ مع تداخلها ـ على النحو التالى :

١ ـ محمود حسن إسماعيل .

٢ ـ أحمد عبد المعطى حجازى ، وفاروق شوشة ، ومحمد إبراهيم أبو سنة

٣ ـ أمل دنقل ، وحامد طاهر .

٤ ـ عبد الفتاح شهاب الدين ، وناجى عبد اللطيف ، وفؤاد مغنم ، وصلاح والى .

ولم يكن الاختيار وقفا على شاعر تقليدى أو شاعر حر ـ من حيث الشكل الموسيقى ، (وقد ناقشنا فى مرات عديدة خلال الكتاب مدى صحة هذا التقسيم) فمعظم شعراء الأجيال الثلاثة الأولى ينتمون إلى اللونين ، كما لم تكن شهرة الشاعر وحدها دافعا للاختيار، فمعظم شعراء الجيل الرابع تمت مناقشتهم من خلال « الديوان الأول » لكل منهم .

وبالإضافة إلى تنوع الأجيال والأنماط كان هناك تنوع للقضايا يهدف إلى التوقف فى إنتاج كل شاعر أمام قضية رئيسية ، دون فصل لخلاياها عن بقية خلايا الجسد الحى الذى تنتمى إليه ، على أمل أن تكون القضايا فى النهاية متكاملة لا متكررة ، وانطلاقا من هذا التصور تعددت الزوايا التى يتم من خلالها إلقاء النظرة ، واتحد المحور، فكان أن عولجت القصيدة الحديثة من خلال استقلالها وانتمائها ، ومن خلال أقنعة الصورة التى تتجسد عبرها ، ثم من خلال اكتمال دائرة الاتصال الفنى وعلاقتها بالمتلقى ، والوسائل التى تتبعها فى حوارها الخالق مع الطبيعة ، والصراع المحكم الذى يدور بين جزئياتها سعيا إلى تجسيد شكل فنى متكامل ، والسبيل الذى تتخذه فى بناء الرمز وربط العوالم بعضها بالبعض الآخر من خلاله ، ودرجات السلم الموسيقى التى تتحرك عليها القصيدة بدءا من البناء التقليدى حتى «قصيدة النثر» ومخاطر الانزلاق فى بعض المراحل ، والانتقال الذى حدث فى هذه القصيدة من متعة « السماع الجماعى» إلى متعة « القراءة الفردية» والوسائل التى ترتبت على ذلك فى النغم والصورة وطريقة كتابة القصيدة فى شكل « الشطر» أو « السطر» الكامل أو الناقص وأدوات التعبير الأخرى ودخول عناصر « الثقافة» إلى القصيدة الحديثة والفرق بين استخدام هذا العنصر « نيئا» أو « ناضجا» والحدود التى يمكن أن تفصل بين الموضوع الشعرى والموضوع غير الشعرى ووسائل « تشعير» الموضوع المحايد ، والدور الذى تؤديه الصور البلاغية فى بناء القصيدة الحديثة ، ثم الأهمية البالغة للتنبه لشبكة البناء اللغوى الذى يضم كل خلايا القصيدة ويشكل منها جسدا تزداد حيويته وقدرته بازدياد حساسية الشاعر للطاقة الكامنة فى البناء اللغوى .

لقد نوقشت هذه القضايا ، وما تولد عنها من قضايا أخرى ، من خلال النص الشعرى المطروح للبحث سواء كان قصيدة أو ديوانا ، وكانت الرغبة والمحاولة دائما أن يكون «التنظير» بالقدر الضرورى الذى يتطلبه النص ويدعو إليه ، وأن يعطى أكبر قدر من الاهتمام لقراءة أسرار « الخلية» الماثلة تحت « المجهر» .

إذا كان هذا الكتاب قد حاول أن يكون قريبا من « روح العلم» بما يمليه ذلك من الحيدة ، والنزعة الوصفية التحليلية لظواهر نابعة من الموضوع المعالج وليست مفروضة عليه

وبما يمليه استخدام « المجهر» من ضرورة التزود بالأدوات العلمية اللازمة لصحة القراءة وحسن الربط وقيام التحليل على أسس علمية ، فإنه قد حاول فى لغته أن يكون قريبا من «روح الأدب» دون أن يغيب عنه إشعاع الروح الأولى، والواقع أن « لغة» النقد الأدبى الحديث، تستحق مزيدا من اهتمام الدارسين بل وتستحق أن تكون فى ذاتها موضوع تأمل ودراسة ، ولابد أن يتساءل المرء عن الخطوات التى قطعتها أو ينبغى أن تقطعها هذه اللغة بين طريقة « شرح البيت» أو نثره وإجراء الاستعارة وبيان عناصر التشبيه وهى بقايا منهج كان من قبل أكثر حيوية وطواعية وكان يمتد إلى كثير من آفاق النص الجمالية وبين طريقة امتلاء المقال النقدى بالإحصاءات والجداول والرسوم البيانية والأرقام التى تستنفد جهد الباحث وتظل غالبا معلقة لا تأخذ حظها الكافى من التعليق « النقدى» وكأنها هدف فى ذاتها ، وكأن الناقد يشرع أسلحته فى وجه قارئه أكثر مما يدخرها لحمايته من المخاطر التى يتعرض لها بسبب عدم معرفته بدقائق النص، وهى أصداء منهج حديث حرص البعض على أن يسرف فى الاقتباس من مقدماته دون أن يتدبر فيما تمليه هذه المقدمات من خطوات أخرى .

ألا يمكن اللجوء فى لغة النقد الأدبى إلى طريقة تأخذ من العلم الصرامة والدقة والحيدة واطراح الفروض ومناقشتها قبل الإدلاء بالرأى، والاستعانة بما يقدمه العلم من وسائل مختلفة فى قياس الظواهر، لكنها فى نفس الوقت تحاول أن تقترب من مناخ النص الذى تدور فى أفقه ، وأن تقرب المتلقى ـ وهو طرف دائرة التوصيل التى ينشدها كل من المبدع والناقد ـ أن تقربه من العمل الفنى ليرى مظاهر السلب والإيجاب فيه بدلا من أن تقربه إلى حقائق العلم المجردة فى أى حقل من حقول المعرفة حتى ولو كان هذا الحقل هو النقد الأدبى ذاته؟

لقد أردت من خلال هذا الكتاب أن أقدم إسهاما متواضعا فى مجال تحليل القصيدة المعاصرة ، وأنا أعلم أن النماذج التى أخذتها لا تحصر على أية حال النماذج الجيدة فى الشعر العربى المعاصر، وأن هناك عشرات أخرى من النماذج تغرى بالقراءة والتحليل . وبعضها تناوله الرواد من قبل وكثير منها مازالت خلاياه الحية النابضة تنتظر المجهر. وأنا أدعو زملائى الباحثين الجادين للإسهام فى كشف الخصائص الكامنة فى القصيدة الحديثة ، وأعد بأن أكون دائما أحد المحاولين ما وجدت إلى ذلك سبيلا .

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير. .

أحمد درويش

القاهرة فى ٢— يوليو سنة ١٩٨٧

المبحث الأول

الصّراع المحكم فى قصيدة فى "مرثيّة لاعب سيرك"

أحمد عبد المعطى حجازى

يظل العبء الملقى على القصيدة الحديثة، وعلى الجيد منها على نحو خاص ـ عبئا ثقيلا فهى تلتقط لحظة متفردة، تولد فى البدء على نحـو خاص فى نفس واحدة، ثم تنمو فى زمن خاص لايقاس بالزمـن الخارجى وليست له معان ثابتة، وهى حتـى هذه اللحظة ليست إلا جزءا من « المشاعر» قد يلتقى فيه الشاعر مع غيره ، لكنه ليس شاعرا من خلال تملك هذه اللحظة ذاتها، فـالشاعر ـ كما يقـول النقاد ـ « شـاعر من خـلال ما يقول لا من خـلال ما يحس، لكنه فى اللحظة التى يبدأ فيها تشكيل هذه المشـاعر فى قالب لغوى بهدف توصيلها أو «الإشعار» بها أو بمعـادلاتها، من هذه اللحظة تبـدأ المهمة الشاقة للقصيـدة، إنها تشق طريقها لتحقيق هدفهـا ـ إن كان يوجد لها هدف ـ فى حقل ملىء بـالمتناقضات فهى تحرص على أن يكون الشعور متفـردا وعاما فى وقت واحد ، وعلى أن تكـون اللغة خاصة بـالشاعر غير مقلدة لكنها فى الوقت ذاته عامة تنتمى إلى لغـة الجماعة التى تتوجه إليها والتى لايمكن أن يتم التوصيل إليها إلا مـن خلال لغة تتفق على قدر من الدلالات لرمـوزها ، ثم لابد أن يتم ذلك كلـه فى قالب موسيقى، يبـدو فى الحالات الجيدة وكأنه ثوب قُـدَّ على هذا الموقف الخاص، وهو يحرص فى الوقت ذاته على الانتماء إلى تقاليد موسيقية عامة معترف بها فى الفن الشعرى الذى تنتمى إليـه القصيدة، وعلى الجملة فالقصيدة الجيدة تبدو وكـأنها نبع جديد ذو مذاق خـاص ، ولكنها فى الوقـت ذاته امتداد ـــ ولو على قدر غير محدد الملامـح ـ لمورد قديم معهود.

إن هذا القدر مـن الصراع ، يجعل فى القصيدة على نحو عـام رافدين من روافـد المتعة، رافد السمات العامة، ورافد السمات الخاصة، والأول قريب مما سماه رولاند بادت : « درجة

مـا فـوق الصفر» والثـانـى قـريب ممـا أطلـق عليـه جـرونجيرو « درجة مـاتحت الصفـر فى الأسلوب»[١].

وإذا كانت سمات الرافد الأول تستقر شيئـا فشيئا حتى تصبح فى ذاتها مصدرا للمتعة فى درجة من درجـاتها، كما حدث للقصيدة العربيـة فى بعض مراحل الصنعـة التى مرت بها. فإن هـذا الرافد تقل أهميتـه فى القصيدة الحديثة، حيـث لا يستطيع البعد الزمنـى المحدود لتقاليدها ـ والـذى كانت فيه هذه التقاليد ذاتها، موضع جدل ومنـاقشة ـ أن يلعب الدور التقليدى للإمتاع، ومن هنا فإنه يلقـى عبئا أكبر على بعد الرافد الخاص : « درجة ما تحت الصفر» والذى يتمثـل فى الوسائل الفنية المتبعـة فى كل قصيدة على حدة، والقـدرة الخاصة للشاعر على إدارة الصراع داخل حقـول المتناقضات التى يمر بها، ولعل ذلـك يفسر جانبا من محدوديـة عدد القصائد الجيدة فى شعـرنا الحديث، إن كثيرا من الشعـراء يعتمدون على رافد السمات العامة» و«درجة ما فوق الصفـر» وهى سمات لم تستقر بعد على مستوى الإمتاع العميق، حتى وإن استقر بعض منها على مستوى « القواعد النظرية» استقرارا نسبيا، ومن ثم فهم لا يلتفتون إلى القدر الذى ينبغى أن يبذل على مستوى « السمات الخاصة» أو «درجة ما تحت الصفر» ومن ثم يضيع المذاق المتميز لأعمالهم ولا يتوفر فيها القدر الكافى من الإغراء للعودة إليها مرة ومرة، ومواصلة الطرق على بابها حتى تكشف عن بعض أسرارها.

ولكن القصيدة التى نود أن نتوقف أمامها هنا، وهى قصيدة مرثية «لاعب سيرك» لأحمد عبد المعطى حجازى [٢]، قصيدة تغـرى بإعادة قراءتها، وهـى فى كل مرة ربما تشـف عن جانب جـديد من المتعة والضـوء شأن الماسة الجيدة، التـى لا تتوقف العين الفاحصـة عن اكتشاف منابـع جديدة للضوء الممتع فيهـا، قصيدة يتحقق فيها قـدر كبير من التوازن بين رافدى المستويين العام والخاص فى بناء القصيدة الحديثة.

إننا نريد أن نقرأ معا هذه القصيدة، دون أن يعنى ذلك أننا نريد أن نشرح «القصيدة» فالشعر الجيـد يستعصى على الشرح، ولا نريد أن ننسـى العبارة الجيدة، التى قـالها أندريه بريتون عندما قـال له أحد الشراح « لقد كان الشاعر يريد أن يقول كـذا «فقال له بريتون

---

1) Voir: Le degre zero de L'ecriture. R. Barthes. Paris. 1982 et voir. aussi. Granger. ssai sur La Philosophie du style.

(٢) من ديوان : « مرثيـة للعمر الجميل»، انظر : ديوان أحمد عبد المعطـى حجازى، دار العودة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٢، ص ٥٢٥ ومابعدها.

«معذرة ياسيدى : لو كان الشاعر يريد أن يقول هذا لقاله» . لكن القراءة قد يكون منطلقها كما يقول جون لويس جوبير [١]» : التسليم بأن الشعر هو ابتكار لشريحة خاصة فى اللغة .

وعلى القارئ أن يوضح القواعد التى اتبعت فى بناء هذه الشريحة ، وأن يكشف جزءا من سر « الشفرة الخاصة التى اتبعت فى بناء القصيدة والتى تحكمها (وهو طريق مخالف بالطبع للتفسيرات التاريخية والنفسية والخلقية) ، فقراءة الشعر لا تهدف إلى أن تحدس بما كان يريد أن يقوله الشاعر ولكن إلى تحليل ما تقوله القصيدة ، وهذا اللون من فك الطلاسم يمكن أن يتسرب إلى نفوسنا فى اللاوعى ، أو فى نصف الوعى ، أثناء القراءة « العفوية» الأولى ، لكن علينا أن نصل إلى كشف قناعها من خلال طرح التساؤلات حول وظائف عناصرها اللغوية ، ومن خلال ذلك نستطيع أن نكتشف طريقتها الخاصة فى الدلالة . ولنبدأ بوضع نص القصيدة أمام أعيننا ، وترقيم أبياتها ، لكى يسهل لنا ذلك متابعة التحليل [٢] .

(1) J.L.Jauqert. Le poesıe paris 1977. p. 13.

(٢) التزمنا فى تحديد وتوزيع الأبيات على الأسطر بالصورة التى وردت فى الديوان فى الطبعة المشار إليها ، وهو توزيع يحرص الشاعر ـ كما يقول ـ على متابعته بنفسه قبل الطبع .

مرثية لاعب سيرك

١ ـ فى العالم المملوء أخطاءَ .
٢ ـ مطالب وحدك ألا تخطئا .
٣ ـ لأن جسمك النحيل .
٤ ـ لو مرة أسرع أو أبطأَ .
٥ ـ هوى وغطى الأرض اشلاءَ .
٦ ـ فى أى ليلة ترى يقبع ذلك الخطأْ .
٧ ـ فى هذه الليلة أو فى غيرها من الليالْ .
٨ ـ حين يفيض فى مصابيح المكان نورها وينطفئْ .
٩ ـ ويسحب الناس صياحهم .
١٠ ـ على مقدمك المفروش أضواءَ .

* * *

١١ ـ حين تلوحُ مثلَ فارس يُجيل الطرفَ فى مدينتهْ .
١٢ ـ مودِّعا يطلب ود الناسِّ فى صمت نبيلْ .
١٣ ـ ثم تسير نحو أول الحبال .
١٤ ـ مستقيما مومئا .
١٥ ـ وهم يدقون على إيقاع خطوك الطبول .
١٦ ـ ويملئون الملعب الواسع ضوضاءَ .
١٧ ـ ثم يقولون ابتدىءْ .
١٨ ـ فى أى ليلة تُرى يقبع ذلك الخطأْ .

* * *

١٩ حين يصير الجسم نهب الخوف والمغامرة .
٢٠ ـ وتصبح الأقدام والأذرع أحياءَ .

٢١ ـ تمتد وحدها .
٢٢ ـ وتستعيد من قاع المنون نفسها .
٢٣ ـ كأن حيات تلوت .
٢٤ ـ قططا توحشت . . . سوداء بيضاءَ .
٢٥ ـ تعاركت وافترقت على محيط الدائرة .
٢٦ ـ وأنت تبدى فنك المرعب آلاء والاءَ .
٢٧ ـ تستوقف الناس أمام اللحظة المدمرة
٢٨ ـ وأنت فى منازل الموت تلج . . عابثا مجترئا .
٢٩ ـ وأنت تفلت الحبال للحبال .
٣٠ ـ تركت ملجأ وما أدَّركتَ بعدُ ملجأً .
٣١ ـ فيجمد الرعب على الوجوه لذة ، وإشفاقا ، وإصغاء .
٣٢ ـ حتى تعود مستقرا هادئا .
٣٣ ـ ترفع كفيك على رأس الملأْ .
٣٤ ـ فى أى ليلة ترى يقبع ذلك الخطأْ .

* * *

٣٥ ـ ممددا تحتك فى الظلمة .
٣٦ ـ يجتر انتظاره الثقيل .

* * *

٣٧ ـ كأنه الوحش الخرافى الذى ماروضت كف بشر.
٣٨ ـ فهو جميل .
٣٩ ـ كأنه الطاووس .
٤٠ ـ جذابٌ كأفعى .
٤١ ـ ورشيق كالنمر .
٤٢ ـ وهو جليل
٤٣ ـ كالأسد الهادئ ساعةَ الخطر .

* * *

٤٤ ـ وهو مخايلٌ فيبدو نائما .
٤٥ ـ بينا يعد نفسه للوثبة المستعرة .
٤٦ ـ وهو خفيٌّ لا يرُى .

٤٧ ـ لكنه تحتك يعلك الحجر .
٤٨ ـ منتظرا سقطتك المنتظرة .
٤٩ ـ فى لحظة تغفل فيها عن حساب الخطو .
٥٠ ـ أو تفقد فيها حكمة المبادرة .
٥١ ـ اذ تعرض الذكرى .
٥٢ ـ تغطى عريها المفاجئا .

* * *

٥٣ ـ وحيدة معتذرة .
٥٤ ـ أو يقف الزهو على رأسك طيرا .
٥٥ ـ شاربا ممتلئا .
٥٦ ـ منتشيا بالصمت ، مذهولا عن الأرجوحة المنحدرة .
٥٧ ـ حين تدور الدائرة .
٥٨ ـ تنبض تحتك الحبال مثلما أنبض رام وتره .

* * *

٥٩ ـ تنغرس الصرخة فى الليل .
٦٠ ـ كما طوَّح لص خنجره .

* * *

٦١ ـ حين تدور الدائرة .
٦٢ ـ يرتبك الضوء على الجسم المهيض المرتطمْ .
٦٣ ـ على الذراع المتهدل الكسير والقدمْ .
٦٤ ـ وتبتسمْ .
٦٥ ـ كأنما عرفت أشياءَ .
٦٦ ـ وصدقت النبأْ .

إن العنوان الذى تحمله القصيدة يضعنا على عتبة اللحظة الشعورية التى تثيرها فينا وهو فى الوقت ذاته يعطى ترنيمة أولى لنغم سوف يمتد على طول القصيدة، وذلك هو نغم «التناقض والصراع»، فنحن هنا مع « مرثية » وهى كلمة يثير مدلولها المباشر فى النفس، الموت والسلب وانعدام الحركة لكننا مع مرثية « لاعب » وهى كلمة تثير فى النفس عكس ما تثيره الكلمة الأولى فهى رمز للحياة والحركة والإيجاب لكنه لاعب « سيرك» وتلك هى الأرض التى يتم عليها التقاء المتضادين وهى مهيأة لذلك من خلال « الفن» ففى كل ليلة عندما تتم على أرض المخاطرة لحظة اقتراب من شبح الموت، يتزايد الشعور بالخوف حتى مداه، وعندما يتولد من هذه اللحظة لحظة « نجاة» تتم فرحة بالميلاد الجديد، دائرة التناقض إذن تضيق وتنفرج كل مساء ولسوف نرى سبل الصراع المستمر الفنى بين الضيق والانفراج، وكيف تأتى لحظة الفجوة التى يطل منها الشبح الكامن، والمهم أن نرى كيف استطاع الشعر بناء لحظته فنيا ولغويا من خلال هذا الصراع .

يقول الشاعر التشيكى كارل سابينا [١] : « إن التناغم يولد من التناقض والعالم كله يتكون من عناصر متعارضة، وكذلك الشعر. والشعر الحقيقى يعيد صياغة العالم بطريقة جوهرية ومدوية، يتم فيها ميلاد الأسرار من خلال التقاء المتناقضات». وهذا القول ينطبق كثيرا على ما نحن بصدده . بل ينطبق على نغمة تشيع فى كثير من قصائد حجازى ولاننسى أن عنوان الديوان الذى وردت فيه هذه القصيدة، هو « مرثية العمر الجميل » وهو يحمل نفس البعد الذى أشرنا إليه .

تبدأ القصيدة بمقطع خماسى يرسم الدائرة العامة التى تتحرك فيها ويشى من خلال «النبوءة» اللغوية ، باتجاه الريح فيها، فالمقطع يتكون من جملتين كبيرتين، أولاهما جملة خبرية تقريرية، والثانية جملة شرطية، والجملة الخبرية تحدد دوائر الخطأ المتعددة ودائرة الصواب الوحيدة المحتملة، وهى حين ترسم الدائرة الأولى تجعلها عن طريق الصفة «المملوء» شديدة الاتساع وحين ترسم الدائرة الثانية تجعلها عن طريق الحال « وحدك»

---

(١) من شعراء القرن التاسع عشر، والنص الوارد هنا مقتبس من كتاب « رومان جاكوبسون» « ثمانى قضايا شعرية».

R. Jakobson. huit questions Poetiques Paris 1977. P 31.

شديدة الضيق والإحكام، وتعطى نبوءة أولى بصعوبة المدى : ثم تأتى الجملة الشرطية لكى تعلل من خلال « المنطق الشعرى» ما أوحت به الجملة الأولى ، ولنتأمل البناء الداخلى لهذه الجملة من خلال أدواتها الأولى ، الفعل والجزاء ، القرار والجواب الحركة ومقابلها ، الصراع بين «الحركة» فى الجسد، انعدام الحركة فى الموت، وحركة الجسد تكبلها دائرة مغلقة يعبر عنها الشعر بوسائله، فهناك الصفة « النحيل» : «لأن جسمك النحيل» وهى تشى بضعف المقاومة، ثم هنالك الظرف « مرة» وهو يشى بشدة ضيق الدائرة، ثم هنالك الفعلان المتناقضان « أسرع أو أبطأ» وهما يوحيان بإغلاق المنافذ فى كل الاتجاهات وبانعدام المفر ثم تأتى جملة الجواب المسترسلة فى مقابل هذا كله : « هوى وغطى الأرض أشلاء» ، لكى تضع فى مقابل الدائرة الضيقة المغلقة، دائرة لا نهاية لاتساعها « الأرض » ولكى تضع فى مقابل المفرد المتوحد « الجسم النحيل » الجمع المتعدد الممزق « أشلاء» ، ولنعد مرة أخرى إلى ذلك التوازن الدقيق الذى يتم على مستوى « الحدث» بين فعل الشرط الخاطف ، وفعل الجزاء المسترسل المدوى ، فالكارثة سوف تحدث من خلال الفعل « أسرع » أو «أبطأ» من خلال أحد الفعلين لا كليهما، والجزاء سوف يكون « هوى وغطى الأرض أشلاء» أى من خلال أربع وحدات صوتية متتالية، وكأننا بإزاء تفجير مروع يكفى فعله أن تضغط على «الزر » للحظة واحدة، ولكن عليك أن تتوقع أن يستمر دوى الانفجار وأصداؤه وأصداء أصدائه إلى أمد بعيد، وكأننا كذلك بين لحظة النظام المحكم المتوحد المهيمن فى حياة الجسد ، ولحظة الفوضى والتمزق والوقوع فى الهاوية فى الجانب الآخر ومن هذا المنطلق يمكن أن يمتد المعنى الشعرى فى نفوسنا، بل وينبغى له أن يمتد خارج اللحظة الخاصة التى كونته ـــ لكى يقترب من جوهر الصراع بين التماسك والاضمحلال ، بين الهيمنة والتسيب، بين الوجود بالمعنى الفلسفى والشعرى والعدم حتى وإن كان وجودا فى شكل الأشلاء .

إذا كانت الخماسية الأولى فى القصيدة قد طرحت فكرة احتمال الحدث وحددت من خلال الدوائر المتقابلة، وعناصر السلب والإيجاب اتجاه الريح ، فإنها لم تكن بحاجة إلى حسم نثرى لكى تنتهى إلى نتيجة « واضحة» وهى أن الجسد النحيل يتحرك فى اتجاه الهاوية ، ولكن الخماسية الثانية (٦ ـ ١٠) تبنى على هذه النتيجة الصامتة الناطقة، فالمقطع لم يعد يطرح احتمالية الحدث، ولكنه يُعْنى بتحديد زمانه ومكانه .

فى أى ليلة ترى يقبع ذلك الخطأ .

والتكنيك الذى تلجأ إليه القصيدة فى تحديد الزمان تكنيك دقيق يقترب من لحظة الخطر

ويبتعد عنهـا فى دقة ، فالجملـة الاستفهامية الأولى قـدمت عنصرا مجهولا وعنصرا معلـوما فالزمان مجهول (فى أى ليلة؟) لكن الذى سيقـع فيه معلوم (ذلك الخطأ) ولنلاحظ أولا أن تكنيك الصراع بين المتناقضات (المجهـول المعلوم) ماثل معنا هنا ولنلاحـظ ثانيا ، أن نبض التوتر يزداد من خـلال إطلال عنصر المعلوم (الخطأ) برأسه ويبقى البعد الـزمانى صامتا فى هذه اللقطة ، لكن البيـت الثانى (رقم ٧) ما إن يفتح حتـى تقترب « الكاميرا» من العنصر المجهول اقترابا مفاجئا وشديدا : « فى هذه الليلة» . ومن خلال اسم الإشارة للقريب نحس أن الدائرة قـد اكتملت بعنصرين معلومين ، لكـن القصيدة لا تريد الآن للحـدث أن يبلغ ذروته وهى تُصَعِّـد فحسب من خلال صدمـة مفاجئة درجة الشعـور ثم لا تلبث فى الجزء الثانى من البيت أن ترخى هذه المشاعر « أو فى غيرها من الليال » فتعود بنا من حيث تحديد الزمـان إلى لحظة الصراع بين المعلـوم والمجهول ، ثـم يبدأ تحديـد المكان ووصـف الديكـور المحيط به بدءا من البيت الثامن (حين يفيـض فى مصابيح المكان نورها وتنطفئ ويسحب الناس صياحهم ، على مقدمك المفروش أضواء) .

ومع أن المكان يبدو للوهلة الأولى مسرحا للعب وهو من هذه الزاوية يمثل جانب الحركة والوجود والإيجاب والحياة فـإننا نستطيع أن نلمح من خلال الوسـائل اللغوية كيف يتسرب إليه الموت والعدم من خلال التراكيب والكلمات ، وكيف يستمر الصراع قائما بين المحورين الرئيسيين فى القصيـدة ، فما تكاد الصورة تعطـى للمكان طابع المصـابيح وهى رمـز الضوء والإيجاب حتى تجعـل على جانبهـا فعلين يتصارعـان ، يفيض (رمـز الحياة) وتنطفـئ (رمز الموت) ثـم مـا تكاد الصـورة التالية ، تعبر عـن النشوى والإعجـاب ووهج استقبـال الناس للاعـب فى مسرحه ، حتـى ترسـم هذه النشـوى فى شكل جنـائزى يتسرب فيه مـن خلال اللاوعى الفعل « صاح» وهو فعل يستعمل فى الجزع من الموت ، ثم هو صياح يسحب على مقدم اللاعب ويغطيه ، وهو من خلال هذه الصورة يذكر بالملاءة التى تسحب على الجسد المسجى وتغطيه : « ويسحب الناس صياحهم على مقدمك المفروش أضواء» .

إن رائحة الموت تفـوح من هذه الخماسيـة مع أنها ترسـم فرحة الاستقبـال ، لكن دائرتها تظل مع ذلـك مفتوحة ، فإذا كانت قـد افتتحت بكلمة « ليلة» رمزا الظـلام والسلب فإنها اختتمت بكلمة « أضواء» رمز الوجود والإيجاب لكى يظل الصراع قائما .

مرة أخـرى تلوح قضيـة الزمـان فى بداية المقطـع الثالـث (من ١١ إلى ١٨) وهـو ليس مقطعا خماسيا مثـل المقطعين السابقين ، لقد بدأ المقطع بـالظرف (حين) فى البيت الحادى عشر، وهو بدء يربط المقطع بدائرة المجهول التى كانت قد أغلقت ثم أعيد فتحها فى المقطع

السابق ، فهذا الظرف ، كان قد ورد فى البيت الثامن (حين يفيض فى مصابيح المكان نورها وينطفئ) وكان بدوره فى هذا البيت يحيل على ظرف مكان آخر فى البيت السابع «فى هذه الليلة أو فى غيرها من الليال» . وهو الظرف الذى أشرنا من قبل إلى دوره فى الاقتراب من العنصر المجهول ثم الابتعاد عنه ، لكن علينا أن نلاحظ أن الظرف هنا يلعب على درجة من درجات سلم الحدث تختلف عن درجة الظرف الذى ورد فى المقطع السابق ، ويمكن أن يتضح ذلك ذلك من خلال رصد شبكة العلاقات بينه وبين الوسائل اللغوية الأخرى فى المقطعين والضمائر منها على نحو خاص ، ففى المقطع السابق يتصل الظرف بالأشياء أولا (حين يفيض . . نورها) ثم بالآخرين (ويسحب الناس) لكنه لا يتصل بالفارس بطل الحدث نفسه ، وكأن دائرة الزمان كانت تعد على حدة ، لكن الظرف فى هذا المقطع يتصل مباشرة بالبطل (حين تلوح) وكأنه من خلال ذلك يحدث الربط بين الزمان (الذى مازال مجهولا) وبين البطل (الذى أصبح معروفا) ومن خلال هذا ندخل فى دائرة أخرى من دوائر الصراع بين المجهول والمعلوم ، ثم يبدأ مشهد العودة للمكان ، وعلى نفس النحو الذى تطور به مشهد الزمان فى هذا المقطع بالقياس إلى سابقه ، يتطور مشهد المكان أيضا فى خط مواز، لقد كان هم القصيدة فى المشهد السابق رصد (المكان ـ المسرح) لكنها فى هذا المقطع ترصد (المكان ـ البطل) و(المكان ـ الحركة) أيضا ، ولسوف يظل التكنيك الرئيسى وهو تكنيك الصراع ماثلا فى هذا المقطع ، فالمحوران المتصارعان يحاول كل منهما أن يشد خيوط الحدث نحوه ، ولا يعنى اختفاؤه عن الضوء لحظة أن الخيط قد أفلت من يده حتى تأتى لحظة القمة الفنية التى تسعى القصيدة إليها ، ويتمثل هذا الصراع هنا من خلال الصورة (مثل فارس يجيل الطرف فى مدينته) فالمكان الذى يضيق فى الواقع وتكاد دائرته تنغلق ، يقابله فى الصورة « مدينة» واسعة ، وهذه المدينة من خلال عنصر الإضافة (مدينته) تهب الملكية الواسعة لفارس على وشك أن يفقد كل شىء فتحدث الإضافة بدورها من خلال التقابل بين التملك المتخيل والفقد الوشيك الوقوع ، تحدث نغمة أخرى من نغمات الصراع . ويظهر الصراع كذلك من خلال الفعل ، فالفعلان المتقابلان فى بداية المقطع واللذان يربط بينهما أداة التشبيه « مثل» يعبر أحدهما عن اللحظة الخاطفة « تلوح» بينما يعبر الثانى عن اللحظة المتأنية « يجيل» : «حين تلوح مثل فارس يجيل الطرف فى مدينته) ومن خلال هذا اللعب بجوهر الزمن يختل المقياس الخارجى له ، كما اختل المقياس الخارجى للمكان من خلال ربط المسرح المحدود بالمدينة الواسعة ، وتجتاز بنا القصيدة مع هذا الاختلال ومن خلاله التخوم الخارجية للزمان والمكان العاديين لكى تنقلنا إلى قلب الحديث متلفعا بهما ومجردا عنهما فى آن واحد ، ثم تأتى قمة المفارقة فى ذلك المشهد الذى يلتقى فيه

الفارس مع الآخرين لكى (يطلب) فيه ودهم، لكنه يطلبه فى (صمت) نبيل .

من خلال هـذا المشهد الأخير يحدث الاتصال بين الفارس (الشخـص الأول) والناس (الشخص الثانـى) وهما طرفا الحضور فى شبكـة علاقات الضمائر فى المتكلم والمخـاطب ، وهما من هذه الـزاوية يمثلان محورا يقابـل محور (الشخص الثالث) الـذى يعبر عنه ضمير الغـائب، وهو حتـى هذه اللحظـة يبدو غـائبا عـن مسرح الأحداث ، لكنـه فجأة وبـلا مقدمات ، وحتى بلا مرجع للضمائر، يظهر فى الأبيات (١٥ ، ١٦ ، ١٧) :

(وهم يدقون على إيقاع خطوك الطبول

ويمـلئون الملعـب الواســع ضـوضـاءَ

ثم يقولون ابتدئْ) .

من هـم هؤلاء الـ (هم) ؟ وكيـف اندسوا فى لحظـة الود الصـامت النبيـل بين الفارس وجمهوره؟ هذه اللحظـة التى كانت قـد هدأت فيها نغمة التـوتر ، إنهم يجيئون لكى يـرتفع النبـض من جـديد، وليـس من المصـادفة أنهم يجيئـون ومعهم إيقـاع دق الطبول السريـع الصاخـب لتزداد معهم سرعة الحدث ، ولكـن علينا الآن أن نتبين كيف التحم هـذا الجسد الغريب المتمثل فى (هم) بأبطال الحدث الرئيسى؟ وكيف استطاع أن يتسلل خفية إلى مركز التأثير، وأن يوجه من خلال ذلك سير الأحـداث نحو الهاوية؟ . إن تكنيك القصيدة يرسم ذلك الالتحـام فى ثلاث صـور متتاليـة ، تمثل فى الواقـع ثلاث درجـات خفية متصـاعدة يتحقق خلالها الهدف .

(أ) فى الصورة الأولى يظهرون تابعين للبطل يدقون الطبول ، ولكن على إيقاع خطوه هو (وهم يدقون على إيقاع خطوك الطبول) .

(ب) فى الصورة الثـانية ، يتقدمـون خطوة للأمام ، فيستقلـون عن البطل أو يـوازونه : (ويملئون الملعب الواسع ضوضاء) دون إشارة للارتباط به .

(جـ) فى الصـورة الثالثة ، يتقـدمون خطوة أخرى فيسبقـونه ويهيمنون عليـه وتصبح فى يدهم المبادأة وإصدار الأمر له (ثم يقولون ابتدئْ) .

وعندما يصل تطور الحدث إلى هذه الدرجة التـى يهيمن فيها ذلك الجسد الغريب تعود القصيدة للتذكير بسؤال الزمان المعلق المجهول : « فى أى ليلة ترى يقبع ذلك الخطأ) .

يأتى بعد هذا ، المقطع الرابع (١٩ ـ ٣٤) ويمكن أن يسمى « مقطع التحورات » ازدياد الصراع حدة بين الوجود والعدم ، ويكمن المفتاح اللغوى للتحورات فى سلسلة من الأفعال ذات الدلالة المعنوية الخاصة ، وعندنا منها فى هذا المقطع (يصير، تصبح ، تمتد ، تستعيد) وهى كلها تنتمى إلى حقل « المحور» بمعناه العام ، وهو تحور تفرضه اللحظة المتوترة التى آل إليها الصراع ، فالموت هذه المرة يقترب ، ويظهر باسمه (المنون) للمرة الأولى فى القصيدة ، ولكن الحياة بدورها لا تستسلم ، ويبدأ الجذب بينهما من خلال الوسائل الفنية ، يميل الميزان فى إحدى الصور ، فلا تلبث التالية ، أن تعيد محاولة التوازن ، ثم يختل من جديد ، ومع سرعة الاختلال والتوازن تزداد سرعة النبض والتوتر تزداد مشاعرنا طواعية فى يد الشاعر يحركها بإشاراته الفنية الدقيقة كيف شاء . فى البيت الأول للمقطع تتوازن كفتا الوجود والعدم ومن ثم يصبح الجسم نهبا بين الخوف والمغامرة ، وفى البيت التالى ترجح كفة الإيجاب والوجود (فتصبح الأقدام والأذرع ، أحياء . . تمتد وحدها) .

لكن علينا أن نلاحظ أنه رغم الانتصار الظاهر للحياة فانه انتصار خادع ، إن الذى أصبح حيا ليس « الجسم النحيل » وليس « الكل» وإنما هو « الجزء» ممثلا فى الأقدام والأذرع ، وسوف تكون هذه الضربة ، التى شطرت الكل إلى أجزاء وجعلت الحياة معلقة بها ، بداية الصراع الحاد الذى يقترب شيئا فشيئا من قاع المنون ويحاول الأفلات ، ولأن الكل تفتت فى لحظة الصراع هذه ، فإن أداة التشبيه « كأن» تأتى هنا على نحو دقيق ، فالطرف الآخر من الصورة غير واضح ، والقصيدة لم تقل هنا « كأنه » لكى يكون هذا الطرف الآخر هو الجسم « والكل » ولم تقل « كأنها» لكى يكون هذا الطرف الآخر هو الأعضاء و «الأجزاء» ولكنها تركت الصورة معلقة فى هذه اللحظة الرهيبة ، ودفعت إلى مسرح الحدث بهذه الكائنات الناعمة المخيفة فى آن واحد ، الحيات المتلوية ، والقطط المتوحشة ، ولنلاحظ مرة أخرى تولد الصراع من خلال المتناقضات فالقطط سوداء ، بيضاء دون وجود حرف عطف بين الصفتين ، والدائرة يحدث فيها التماس والانغلاق من خلال التعارك ، ثم يحدث التباعد والانفتاح من خلال الافتراق (تعاركت وافترقت على محيط الدائرة) .

فى هذه الجولة الأولى من الصراع الحاد ، اختفى « الكل » رمز التماسك والحياة أمام رعب الفناء ، وبدا الجزء فى محاولات للتماسك والبقاء لكن هذا « الكل » يدرك جيدا ، أن الأمل ـ إن وجد ـ لن يكون إلا من خلال الوحدة ، ومن هنا فان صوت الشاعر يبدو فى هذه اللحظة الدقيقة لكى ينطق بالضمير (أنت) رمز الكل المتوحد متصلا أو منفصلا ،

أحدى عشرة مرة متوالية فى ثمانية أبيات فقط (مـن ٢٦ إلى ٣٣) وكأنه ينفخ فيه نفس الحياة الأخير:

وأنت تبدى فنك المرعب آلاء والاءَ .
تستوقف الناس أمام اللحظة المدمرة .
وأنت فى منازل الموت تلج عابثا مجترئا .
وأنت تفلت الحبال للحبال .
تركت ملجأ وما أدركت بعد ملجأ . . . إلخ .

ويلاحظ هنا أن قمـة التوتر جاءت فى البيت الحادى والثلاثين ، وهـو البيت الوحيد فى هذا المقطع الذى خلا من ضمير مباشر يتصل بالبطل :

فيجمد الرعب على الوجوه لذة و إصغاء .

لكن ذلك الانتشاء المؤقت لا يلبث أن يطفئه ذلك الصوت الرتيب الذى يتردد على مدار القصيدة ، وكأنـه البندول الذى يذكـر بحركة الزمـن ، وبأن الأمر لا يعدو أن يكـون تحديد نقطة زمنية مجهولة لمصير محتوم :

فى أى ليلة ترى يقبع ذلك الخطأ ؟

لقد تجسد طرف مـن أطراف الصراع فى المقطع السابق ، بقواه ونقـاط ضعفه ، وناور قوة مجهولة لـه بكل ما يملك ، حتـى أفلت من قاع المنـون مرة ، نجح فى أن يعيد التـوازن ـ أو هكذا بـدا له ـــ من خـلال تجسيد الأجـزاء فى « كل » واحـد ، عبر عنه الضميران المتصـل والمنفصل إحدى عشرة مـرة متتالية ، ولكن : هـل يفلت « الكل » نفسه مـن دائرة العدم ؟ أفـلا يمكن أن يكـون التجسـد فى ذاته مـدعـاة لسهـولة تحديـد الهدف أمـام سهم العـدو المجهول ، والـوحش الخرافى ؟ لكـن هذا الوحـش الخرافى مازال مجردا حتـى الآن وإذا كان المقطع السابق قد أعطى التجسيد للطرف الأول من أطراف الصراع (اللاعب) فإن المقطع الثانـى (الأبيات مـن ٣٧ إلى ٤٨) يعطى التجسيـد والتحديـد للطرف الثـانى مـن أطراف الصراع (الموت) .

ولكن كيـف يجسد الشاعر الموت ، وهـو قمة المجردات؟ ومـا هى الوسائل الفنيـة التى يلجأ إليها لإبراز صورة مجسدة تعادل صورة الطرف الأول من الصراع (اللاعب) وهو مجسد بطبيعته ؟ إن أول ما يـلاحظ على هذا المقطع هو شيـوع الصورة الحسية فيه شيـوعا واضحا بالقياس إلى المقاطع السابقة ، فمعنا فى هذا المقطع صور الطاووس والأفعى والنمر والأسد ،

وهـى صور يقـابلها فى تجسيـد الطـرف الآخر صـورتـان حسيتان فقـط ، الحيات والقطـط ويلاحـظ عند إجـراء المقارنـة أن صورة واحـدة تشترك بين الطرفين هـى صورة الأفعـى هنا والحيات هنـا ، وإن صورة أخرى هنا تتقـارب مع مثيلتها هنـاك ، وهى صورة القط مقـارنة بالنمر مع الفـرق الشاسع فى القوة وتبقى صورة الطـاووس ملك الجو، والأسد ملك الأرض قوتين زائدتين هنا لا يعادلهما شـىء فى ميدان الصراع ومن خلال تقابل الصـور وحده ينبئ التكنيك الفنى عن الميل الرهيب لميزان الرعب فى صالح الموت والفناء .

لكن تكنيك الصراع الذى تبنتـه القصيدة على امتدادها لا يدعنا نسلـم للفناء بالسيطرة على الميدان حتى فى لحظات تفوقه الواضحة ، فهنالك أولا ظرف المكان الخادع « تحت» وهو يوحـى بالهيمنة والسيطـرة وقد ورد فى هذا المقطـع مرتين (فى البيتين ٣٥ ، ٤٧) وحصر بين مجيئه هنا وهنـاك صور تجسيد الفناء ، وهذا الـوحش عندما يكون (تحت) الـلاعب يعطى الإحساس بفوقيـة اللاعب الآخر وتسجيل نقطـة إيجاب له ، لكن هذه الفـوقية لا تلبث أن تسلبها القيمة نقطـة سلب أخرى متمثلة فى (الظلمـة) التى حلت محل الضوء الـذى فرش عند مجىء الـلاعب فى الخماسية الثانيـة ، ثم تأتـى مجموعة مـن الصفات لكى تذكـى ذلك الصراع بين الإيجاب والسلب ، ويلاحظ على هذه الصفات بدورها أنها تتوزع بين طائفتين ، صفـات حسية ، وصفـات معنويـة وإلى الطائفـة الأولى تنتمى صفـات جميل ، جـذاب ، رشيق ، وإلى الطـائفة الثانيـة تنتمى صفات ، جليل ، مخاتـل ، خفى ، ولسنا بحـاجة إلى الإشارة إلى التعادل والتوازن بين الطائفتين على المستوى الكمى .

لكن الصفة تلعـب دورا دقيقا فى بناء لغة الشعر بصفـة عامة [١] ، وهذا الدور يختلف عن المهمـة النحوية التقليـدية للصفة فى بناء الأسلـوب النثرى من حيـث قيامها بتـوضيح الموصوف ، ثم من حيـث وجود علاقة الجزء بالكل بينها وبين المرصـوف فالصفة فى الشعر ليس مـن الضرورى أن تكون توضيحيـة ولا أن تتحقق فيها العـلاقة الجزئية ثـم إن وظيفتها تختلف باختلاف موقعها فى التركيب النحـوى ، فقد تكون الصفة خبرا كما هو الشأن هنا فى الأبيات ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، وقد تكون الصفة نعتا كما هو الشأن فى الأبيات ٣٧، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٨ ، وهى مـن خلال ذلـك كله قـد تبدو ضروريـة لتصور المعنـى الأساسـى للجملة فى الطائفة الخبرية على نحو خاص بحيـث لا يتصور فى غيابها ، وقد يبدو متصورا

---

(١) حول دور الصفة فى اللغة الشعرية ، انظر كتاب : بناء لغة الشعر تأليف جون كوين ، ترجمة د . أحمد درويش ، القاهرة ـ مكتبة الزهراء ١٩٨٥ (الطبعة الثالثة : دار المعارف ١٩٩٤) . (الباب الرابع) .

وإن كان ناقصا حين تغيب بعض الصفات الأخرى فى الطائفة الثانية، ونستطيع أن نتخيل البيت ٤٥ (يعد نفسه للـوثبة المستعرة) لو حذفنا الصفة وتصورنـا الجملة دونها، وقد يكون التصاق الصفة أقل ، كما هو الشأن فى البيت ٤٨ (منتظرا سقطتك المنتظرة) حيث لا يؤثر غيابها كثيرا على المعنى .

لكننا لا نريد أن نقـف طويلا أمام الصفة هنا مـن هذه الزاوية المغرية مـادمنا قد اخترنا لهذا البحـث نغمة أسـاسية تـدور حول « الصراع المحكـم» فى هذه القصيـدة ونود هنـا أن نكتفى بالإشارة إلى الدور الذى تلعبه الصفة فى هذا المقطع من هذه الزاوية .

إن دور الصفـة فى الصراع هنا يتمثـل فى وقوفهـا وسطا بين محورى السلـب والإيجاب ، تستقبل عمـق المعنى الـرئيسى فتـوزع تأثيره على لحظـات التوتـر والهدوء بقدر يخدم درجـة الحرارة الخاصة التى تحافظ عليها القصيدة فى هذه المرحلة ، فالوحش الذى يأخذ صفة أولى هى الخرافى والذى يتحـدد له من خلال اسمـه وصفته معنى سلبى مخيـف لا تلبث الصفة الثانيـة التى تلحـق به من خـلال الجملة الخبريـة (فهو جميل) أن تعطـى له معنـى إيجابيا يصارع المعنـى السلبى الأول ، وقـد يكمن ذلك الصراع داخـل الصفة ذاتها أو مـن خلال النسبة بينها وبين الموصوف ، فـالأفعى جذابة وهى صفة إيجاب خادعة . فـالصفة الأساسية المسكوت عنهـا أنها سامة ــ والنمر الرشيـق غادر ، والأسد الجليـل قاتل وهكـذا فما تكاد الصفة تعطى حتى تسلب وما تكاد تهدئ حتى توتر وما تكاد تذكر بقيم الحركة والحياة حتى تلفها بقيم السكون والموت .

ما بين طـرفى المكان فى المقطـع السابـق (ممددا تحتـك فى الظلمة تحتـك يعلك الحجـر) تحددت صعوبة المواجهة بين خصمين عنيدين واتضحت من خلال الصفة والصورة والبناء الشعـرى وجهـة الصراع الحتميـة ، وبقـى الآن أن تتحدد (اللحظـة) التـى تسـدد فيهـا الطعنة . . و اللحظـة عودة إلى عنصر الـزمان المجهـول . . لكنه هـذه المرة ليس عـودة من خلال كلمة) الليلة فى البيت ٦ أو الليالى فى البيت ٧ أو حين فى الأبيات ٦ ، ٨ ، ١١ ، ١٩ ولكن من خـلال لحظة (فى لحظة تغفل فيها عـن حساب الخطو ٤٩) لقد ضـاقت الدائرة حتى فى مجال الـزمن وكان الصراع فى المقاطـع السابقة قـد أشار إلى نقطة الضعف التـى قد ينفذ منها السهـم ، إنها نقطة تمزق الكل وتحوله إلى أجزاء وهى النقطة التى كانت قد اقتربت بالبطل من قـاع المنون فى إحدى مراحل الصراع ، ولسوف تظهر مـرة أخرى ، سوف يتفتت الخطو (البيـت ٤٩) وسوف يتشتـت الخاطر (إذ تعـرض الذكـرى تغطى عـريها المفاجئـا) وسوف يختل التوازن ، وفى هذه اللحظة سوف تدور الدائرة ، هذه الدائرة التى كانت من قبل تغلق وتفتح (تعاركت وافترقت على محيط الدائرة) وسوف يربط هذا التعبير « تدور الدائرة»

والذى يتكرر مرتين فى هـذا المقطع ، سوف يربط الدائرة الفلسفية المجـردة التى كانت محور الصراع على امتداد القصيدة ، سـوف يربطها بالمخزون التراثى فى ذهـن الجماعة عن « دارت الدائرة عليه » وإذا كان الشكل الدائرى الفلسفـى قد انغلق ، فإن الخط المستقيم الفلسفى أيضـا الممثل فى الحبـال سـوف ينصرم (تنبض تحتـك الحبـال مثلما أنبض رام وتـره) وحين ينبض الرامـى الوتر فليس الحبل وحـده هو الذى ينقطع ، ولكن السهـم يخرج من مكمنه لينهى الصراع المتوتر على مدى ستين بيتا مليئة بالفن والدقة والجودة .

إن المشهد الختـامى الذى نفتـح أعيننا عليه (الأبيات ٦١ ــ ٦٦) يقودنا مـرة أخرى إلى المكان بعد أن بلـغ صراع « الزمان » مداه ، لكى نقـف على بقايا المعركـة وآثار الصراع وهنا سوف نجد أصداء العناصر التى أدارت محور الصراع على طول القصيـدة ، فالضو الذى ولد نشوان فى المفتتـح ، وهددتـه ظلمة الليالى خـلال الصراع ، لن يختفـى حتى بعـد أن يحسم الصراع ولكنه فقط سـوف (يرتبك الضوء على الجسم المهيب المرتطـم) والجزء الذى صار مع الكـل فى لحظات الـذروة ، سوف يبقى لكـى يتلقى أثـار الضوء المحطـم (على الذراع المهدل الكسير والقدم) لكن « الكـل » الذى ظننا أنه صرع ، يعود بعد الفنـاء محتفظا ببقية من أكثر العناصر خلودا فى هذا الصراع عنصر الضـوء ، حين يختزن « ابتسامة» مضيئة على الشفاة ، وحينما يبـدو وكأنـه وحده هـو الذى « عـرف الأشياء » و«صـدق النبأ » إن ذلـك الانقلاب المفاجـئ فى المشهد الختامى ، يـذهب بفلسفة القصيدة كلهـاإلى مدى بعيد وإلى آفاق غير محدودة ، فليسـت نتيجة الصراع بين عنـاصر الإيجاب وعناصر السلـب فى الكون المحيط ، هى غلبـة عناصر السلب بأسلحتهـا المختلفة المتعددة كما يبدو فى ظـاهر الأمر ولكن نتيجـة الصراع هى البقاء لعناصر الخلـود فى الكون : « الضوء» و«المعرفـة» حتى وإن تحطمت مظاهر الحركة العارضة .

هل هـو لون من التفـاؤل تخلص إليه القصيـدة من خلال بنيـانها الفنى المتشابـك؟ قد يكون ، ولكنه ليس تفـاؤلا ساذجا ولا بسيطا ولا فجا بل ولا كامـلا . . إنه لون من الجمال الشاحـب والمتعة الظامئـة كتماثيل الإغريـق القديمـة حين يبدو الجسد يتفجـر جمالا ولكن مبتور الذراعين ، ولون مـن الاقتراب من جوهر حقيقة الكون ، وهـو اقتراب كان لابد لكى تحملنا القصيـدة إليه أن تمر بنا خـلال غابات مكثفـة وبحار عميقة وطبقـات من الهواء نعهدها خلال لحظات استرخائنا ، ودرجة من سرعة الإيقاع تختلف عن درجة إيقاع « الحياة اليومية» ، وكل ذلك كان لابد أن يفرض درجة من درجات التعبير، تختلف عن تعبير الفكر العادى أو المسترخى أو حتى المنطقى المحكم ، ودرجة من السرعة والإيقاع فى ذلك التعبير تناسـب هدف الرحلـة ومناخها ، ولم يكـن ذلك كلـه ممكنا إلا من خـلال ذلك « الصراع المحكـم» فى لغة القصيدة والذى حاولنا أن نقف على بعض أسراره فى هذا الحديث .

المبحث الثانى

الشعر والحوار الخلّاق مع الطبيعة

محمود حسن إسماعيل

فى اليوم الثانى من شهر يوليو عام ١٩١٠ ولد محمود حسن إسماعيل فى قرية (النخيلة) على شاطئ النيل بمنطقة أسيوط فى صعيد مصر. وفى شهر إبريل عام ١٩٧٧ لفظ شاعر العربية الكبير أنفاسه الأخيرة . بمدينة الكويت على شاطئ الخليج العربى . وخلال هذه الرحلة قدر لهذا الفنان المتفرد أن يترك بصماته لا على تاريخ تطور الشعر فى عصرنا وحده وإنما على تاريخ التطور العام لأعرق فن عرفته العربية . ولم تكن حياة هذا الشاعر هادئة ولا مستقرة ولم تعرف أحاسيسه بلادة السكون وإنما ظل فى دهشة مستمرة من هذا العالم وفى تأمل مستمر لقوى الطبيعة من حوله . وفى غزو أبدى لأسرار الكون . تراه فتحس أن روح الفن فى تقمص دائم له وأنه يفتش دائما عن شىء ما بعينيه الحائرتين اللتين لاتستقران إلا قليلا . وشعر رأسه النافر المتحفز وصمته الطويل . وتسمعه فتحس بأن فى كلماته وصوره قوى سحرية توقظ الأشياء من نومها الطويل وتبعثها حية أمام عينيك .

ولعل تجربته الخاصة فى النشأة والتكوين العلمى تفسر جزءا من غرابة سلوكه وشعره معا . فهذا الشاعر لم يتلق فى البدء تعليمه فى مدرسة نظامية ولم يعش حياته الأولى فى وسط مدينة ولا حتى فى وسط قرية . وإنما قدر له أن يعيش فى (الكوخ) الذى أعطاه اسم ديوانه الأول : (أغانى الكوخ) والذى صدر فى عام ١٩٣٤ . كان هذا الكوخ يوجد فى منطقة بعيدة عن القرية تستقر فيه الأسرة غالب فصول العام . وتمارس من خلال الحياة فيه رعاية الزرع وتربية الماشية وعندما أصبح محمود حسن إسماعيل فتى، بعد تعلم القراءة والكتابة فى مكتب القرية وفى مدرستها الأولية ، انضم إلى أسرته فى الكوخ لكى يقوم بدوره كاملا فى زراعة الأرض ورعاية الماشية . وكان من الطبيعى أن يقف تعليمه عند هذه المرحلة ، لكنه ثابر وواصل من مقره البعيد. يحمل كتب المقررات الدراسية فى بداية العام ويقيد اسمه

بـالانتساب فى المدرسـة الثانـويـة ، ولايربطـه بعـالم الثقافـة والأدب إلا خيط واه يتمثـل فى مصادفة طريفة .

كان (كوخ) الأسرة يـوجد على الطريق الذى يـؤدى إلى القصر الريفى لفريد بـاشا وهو واحد مـن كبار ملاك الأراضـى الزراعية فى صعيـد مصر لذلـك العصر وكان خادم البـاشا يذهب إلى المدينة كل صباح ليحمل إلى الباشـا ـ فيما يحمل ـ الجرائد اليومية ، وتعرف محمود حسن إسماعيل على ذلك الخادم الذى كان يستريح فى الكوخ قليلا فى طريق عودته بالقدر الذى يستطيـع فيه الشـاعر الظـامئ أن يلتهـم ما تكتبـه صحف ذلـك العصر من أخبـار الأدب ، ويتوقف على نحو خاص عند الملحق الأسبوعى لجريدة (البلاغ) والذى كان ينشر روائع الإنتاج والـدراسات الأدبية لشعـراء العصر وكتابـه ويطلب من الخادم أن يبقـى هذا الملحق عنـده يوما أو بعـض يوم فالباشـا لا يهتم بقصائد الشعـر وشيئا فشيئا تصبـح هذه الصحيفة الأسبوعية المدرسة الأدبية التى يتربى فيها محمود حسن إسماعيل طوال فترة دراسته الانتسابيـة والتى انتهت بحصولـه على شهادة البكالوريـا (نظام تجهيزية دار العلـوم) عام ١٩٣٢ .

خلال هذه الفترة الخصبة كان محمود حسن إسماعيـل قد مارس تجربة مزدوجة . مارس تجربـة تعليم نفسـه تعليما ذاتيا واستغـل القدر القليـل الـذى أتيح لـه من صحـف الأدب استغلالا طيبا . وهو فى هذا يذكر من بعض الزوايا بمعاصره الشاعر والكاتب الكبير عباس محمود العقـاد ، الذى لم يقطع فى سلـم التعليم الرسمى إلا سنـوات المرحلة الابتدائيـة ومع ذلك عد لضخامة وعمق معرفته وغزارة إنتـاجه آخر الكتاب الموسوعيين فى الفكر العربى ، وتجربة محمود حسن إسماعيل تذكر كذلك بالتجـربة الطريفة فى التعليم الذاتى التى عاشها ورواها الشاعر الفرنسى الكبير لويـس اراجون والذى أخفقت خطاه فى التعليم المدرسى فى بداية حيـاته وبعد أن فقد أهلـه الأمل فيه . لجأ إلى مرحلة مـن التأمل الذاتـى الصامت فى شكـل الحروف ودلالالتهـا ، وقاده ذلـك لا إلى تعليـم الكلمـة فحسب ولكـن إلى عشقهـا والسيطرة عليها أيضا .

لكن الجانـب الآخر من تجربـة الكوخ عند محمـود حسن إسماعيل تمثـل فى القدر الهائل الذى تعلمه من (الطبيعة) لقد أطال صحبة الطبيعة الصامتة الناطقة على اختلاف لحظات الليل والنهار وتقلب الفصول . ووجد فيهـا معلما عظيما أحسن فهم لغته والاستفادة منها ، حتى أنه ليمكن أن يقال إن محمود حسن إسماعيل من أعظم من تأثروا بالطبيعة تأثرا حواريا خالقا فى تاريخ الشعر العربى ، وهو من هذه الزاوية يذكر بالشاعر الفرنسى الكبير (فكتور

هيجو) الـذى كان يقول : (إن حـديقة البيت الـذى ولدت فيـه علمتنى أكثر ممـا علمتنى بعض الكتب) .

ولنتـأمل قليـلا فى إحدى لـوحات الحوار الخلاق بين الشـاعـر والطبيعة، وهـى لوحـة تتداخل فيها الأضـواء على نحو دقيق، وتتبادل صور الطبيعة والإنسـان أماكنها فى « حلول لطيف» تتلاشى مـن خلاله بعض أجزاء الصورة الأولى شيئا فشيئـا، لكى يحل محلها أجزاء من الصـورة الثانيـة، ثم تتعـادل فى بعض اللحظـات الملامح الـذاهبة والملامـح الباقيـة، وتغلب ملامح إحـدى الصورتين فى لحظة أخرى، وقد تختفى إحـدى الصورتين كلية لكى تحل محلهـا الأخرى قبـل أن تعود إلى الظهـور من جـديـد، وهذا «التكنيـك» فى التصويـر الشعرى أقرب ما يكون إلى «**تكنيك مزج الصور**» فى التصوير السينمائى والتليفـزيونى، أو إلى «**تكنيك تداخـل الأصوات**» فى المعزوفـة الموسيقية، وسنرى كيـف استطاع الشـاعـر أن يحافـظ على إيحاء كل صـورة حتى فى غيـابها وأن يوظـف ذلـك كله فى خلـق مناخ شعـرى مكثف.

واللوحة التى نريد أن نتحدث عنها هى قصيدة « جنازة الرق» من ديوان قاب قوسين :

يبدأ الشاعر لوحته ببيت افتتاحى :

أنـا والكـوخ والظـلام وليل   بجميع الأسرار مُدَّت يداه

وهو بيت يكاد يلخص الصراع، فهو يرتكز فى البدء على ذات الشاعر « أنا » وهى تبدو فى لحظة حبيسـة تحدها أسـوار مكان ضيق « الكـوخ» ولايتوقف الحبـس عند ضيـق المكان الذى يحرم الجسـد من الحركة وإنما يمتد إلى «الظـلام» الذى يمنع البصر من التطلـع، وهو ظلام لا مهـرب منه حتـى لو تحطمـت أسوار المكان الضيقـة فى الكوخ فهـو كلام يحيـط به «ليل». ولنلاحـظ أن العناصر الأربعة التى تشكـل هذا المفتتح تداخـل كل عنصر منها فى العنصر التالى « فأنا» داخل « الكوخ» والكوخ داخـل « الظلام» والظلام جزء من «الليل»، وكأن الشاعر يحكم إغلاق الأسرار داخل بعضهـا البعض، كما يحكم الساحر فى الأساطير وضع التعـاويذ والرقى فى صنـاديق صغيرة متداخلـة ويلقى بها فى قاع سحيق، ومـع ذلك الإحكام فى القيـود التى يلف بها الشاعـر نفسه، والستائر الـداكنة التى تحيط بعينيـه، فإن الشطر الثانى ينفرج فجأة عن تهاوى كل هـذه الأسوار أمام بصيرة الشاعر النافذة، فإذا بها تصل إلى جميع الأسرار، بل إن الليل ذاته هو الذى يمد إليها اليدين :

أنــا والكــوخ والظــلام وليــل	بجميــع الأسرار مُــدَّت يــداه
وربــابــى مــدنٌ يشرب الليــلَ	ويُسقــى مِــن كــل لحنٍ دجــاه
وعــزيف الــرياح ركــبٌ غــريــبٌ	فى دروب الأيــام تعــوى خطــاه
وطيــورُ الــرُّبــى بَقيَّــاتُ صَنْــج	عَصَر الليــلُ شَــذوه ورمــاه
وعبابُ السكــونِ بحــرٌ مــن الضجةِ	يلهــو بحيْرَتــى شــاطئــاه

على هـذا النحو يتشكـل هـذا « المدخل الخماسـى» للقصيـدة، فيطور لحظـة « اختراق الحجب» التـى صورها البيـت الأول ، إلى لحظة هيمنة فى البيت الثـانى، حيث لا يتـوقف «الشاعر» عند النفاذ إلى الأسرار ، وإنما يقوم بدور إيجابـى فعال فى تعديل عناصر الطبيعة، فربابه يمتص الظلمة (يشرب الليل) ولكنه فى الوقت ذاته « يسقى من الألحان دجاها» فهو عنصر متفاعـل مع الليـل يمتص ويتمثل ويعطـى، ولا يستسلم أمـامه استسـلام عناصر الطبيعة الأخرى التـى ضمها ذلك المقطع الخماسى: (خطـى الرياح التى تعـوى، أو بقايا شدو الطيور التى عصرها الليل ورماها) ، بل إنه يرى فى الأشياء عكس مايوحى به ظاهرها فهو يرى فى عباب (الكـون) بحرا من (الضجة) تتردد حيرته على شطآنـه، بحثا عن نقطة اختراق جديـدة وثغرة يتم مـن خلالها النفاذ إلى الأسرار ، ومـن خلال هذا الختـام للمقطع الخماسى يبـدو الثبات والرضـى الذى تمثل فى البيـت الأول عندما مـد الليل يديـه بالأسرار للشاعـر وقد تحول إلى حيرة وقلق وديناميكية وبحث دائم عـن المجهول على شواطـئ بحر السكون والضجيج فى قلب الليل .

من هذه اللوحة الخماسية، يدلف الشاعر إلى لوحة أخرى ثلاثية :

والــدجــى ظــالمٌ تجبرَّ حتــى	لم يــدعْ فَــرْحــةً لضــوء يــراه
دَسَّ فى صــدره زمــان الحيــارى	والمســاكينُ بين كفيَّــه تــاهَّــوا
لا شعــاعٌ ولا ضمير ضيــاء	مــن وراء الســوادَ يــرنــو سنــاه

وإذا كانت اللوحة الأولى قد جسدت الليل خالصا فى مواجهة الشاعر وعناصر الطبيعة الأخرى، فإن اللـوحة الثانية استخلصـت العنصر الثابت فى اللوحـة الأولى وهو « الظلام» لتجعل منـه مدخـلا « لامتزاج الصـورة» التى أشرنـا إليها، وهـى تحدث ذلك الامتـزاج فى انسيابية لا تكاد تحس حين تنتقل من « الظلام» إلى « الظلم» وحين تصاغ الصورة على نحو يمكنها معـه العودة إلى أحد المحـورين أو كليهما، وإذا تأملنـا فى البناء البلاغـى والنحوى للبيت الأول من اللـوحة لوجدناه يحمل هـذه الازدواجية فى طياته فالتركيب « الـدجى ظالم

تجبر» يحتمل أن يكون المسند إليه فيه الدجى الذى أسند إليه الظلم ، أو الظالم المتجبر الذى أسندت إليه الظلمة ، ومجئ الصورة فى شكل « التشبيه البليغ» يفتح الباب للازدواج ، ومن خلال هذا الازدواج يمتص الشاعر صفة من الطبيعة فيسندها إلى الإنسان تمهيدا للاختفاء التدريجى للطبيعة من بؤرة الصورة وإحلال الإنسان محلها ، وإذا كانت اللوحة الأولى قد كادت تخلص لطغيان الليل وامتلأت بعناصر الطبيعة المستسلمة وصوت الشاعر المقاوم ، ومازجت اللوحة الثانية بين « ظلام » الليل ، و«ظلم» الإنسان ، فإن اللوحة الثالثة وهى تتكون من ستة أبيات قد خلصت لجانب الصورة الثانى وهو الإنسان ، وكادت تختفى فيها عناصر الطبيعة :

هلكت فى ترابه دعوة المظلوم	واخضلَّ من بكاها ثراه
لم تجد قوة لتصعد للغيب	وشلت ، فلم تقلها شفاه
وخطا الناس لا تسير ولكن	نوحُها فى الطريق يَهذى صداه
تتلاقى جنائزا لم يعد فيها	لوجه الفناء إلا رؤاه
عشش الرق فى دجاها وزنت	عتمة الليل من دواهى أساه
وشكت شيبة السلاسل حتى	عشق القيد سخطها واشتهاه

إن الانتقال بين اللوحتين ، يتم من خلال مفتاح « التزاوج اللغوى» ، فالدجى ظالم ودعوة المظلوم فى صور اللوحة الثالثة ، ولا شك أن صيغة اسم المفعول فى هذه اللوحة الأخيرة هى التى مهدت الطريق لمجموعة من الصور عن المظلومين ، وتمحورت حول صورتين هما « الكلمة» و«الخطوة» واتسمت كلتاهما بالعجز فالكلمة « لاتصعد» والخطوة «لاتسير» ولأن نوافذ الحركة إلى الأعلى وإلى الأمام قد سدت من خلال انعدام الصعود والسير، فلم يبق أمام الصور المندفعة بقوة الغليان الداخلى إلا أن تدور حول نفسها ، ومن هنا جاءت معظم صور هذه اللوحة أشبه ما تكون بالزوابع الترابية والرملية أو بالدوامة المائية قد يصعب على العين أن تلتقط خيوطها بدءا ونهاية ولكنها تحس بقوتها وقد تطوى داخلها ، ومن هذا المنطلق فإن العنصر المؤثر فى مثل هذه الصور قد يكمن فى القوة الإيحائية لمفرداتها أكثر مما يكمن فى الدلالة الحرفية لتراكيبها . ويكفى أن تتجمع فى هذا المقطع مفردات مثل : «بكاء ، شاق ، نوح ، يهذى ، جنائز ، الفناء ، الرق ، الدجى ، زنت ، عتمة ، دواهى ، أسى ، السلاسل ، القيد» .

فهذه المفردات الأربع عشرة عندما تتجمع فى ستة أبيات متتالية فلابد أن تعطيها من

الزخم والإيحاء مايخلق معه الشعور الذى تسعى القصيدة إليه، وما يجعل الإحساس بالدوران السريع للزوابع ماثلا حتى وإن تداخلت أطراف بعض الصور كما حدث فى البيتين الثانى عشر والرابع عشر .

مرة أخرى تعود الطبيعة إلى بؤرة الصورة فى اللوحة الرابعة ممزوجة بالإنسان كما حدث فى اللوحة الأولى، بعد أن رأيناها قد توارت فى اللوحة الثانية واختفت فى اللوحة الثالثة، والشاعر يختار فى هذه اللوحة الرابعة عناصر متطامنة من الطبيعة تخلع تطامنها على من حولها لكنها فى الوقت نفسه تعكس الصمود والتحمل وطول النفس، وتعكس فى لحظة واحدة بعد منال الثمرة، وحلاوة مذاقها حين نصل إليها، ويجسد الشاعر هذا العنصر الطبيعى فى النخلة وماتستقطبه من عناصر طبيعية وبشرية أخرى فى اللوحة الرابعة ذات الأبيات الخمسة :

لم تفدها ضراعة النخل شيئا	وهو لله قانت أواه
عبر الدهر فى التبتل والتسبيح	يدعو، والريح تذرو دعاه
والمظاليم حوله من بنى الفأس	طواهم فى أسره من طواه
عبدوا الأرض من قديم وغنت	بهم الطير والربى والمياه
وهم ضائعون فى كل حقل	موكب للهوان يخزى رباه

إن عناصر الطبيعة فى اللوحة هنا لا تبدو تزيينا خارجيا، ولكنها تبدو أداة تعبيرية، وجزءا من كل ، وخطوة فى حركة ، والتقابل مستمر هنا بين عناصر الثبات وعناصر التغير، وإذا كانت الريح تذرو دائما بدعاء النخيل والصراع بينهما ثابت أزلى والصمود كذلك ، فإن الصور المتغيرة فى ظلال النخيل لبنى الإنسان أو لبنى الفأس، ينبغى أن تستلهم العزم من الصراع الدائم حولها . والشاعر لا تصل به خطاه إلى هذا الربط الواضح بين العناصر ولعله لا يريد، ولكنه يستشرف الآفاق فحسب، ويترك لتشابك العناصر أن تعمل فى النفوس عملها .

يمكن لقارئ القصيدة أن يعتبر اللوحات الأربع السابقة بأبياتها التسعة عشر معزوفة كبرى تصل بالشاعر إلى مايريد أن يلمسه لمسا مباشرا من الحديث عن واقع الفلاح فى عصره والظلم الذى وقع على كاهله، وبدايات انفراج الأزمة وسعادته بها، وهذا الحديث الذى يضع الشاعر فى قلب الأحداث فى وقتها، وكان موضوعا لغنائيات مباشرة لغيره من الشعراء، لم يغر الشاعر بالكشف والتنازل عن أدواته الفنية فى سبيل سرعة الوصول أو سرعة الانتشار ولو أنه قد فعل لتبخرت قصيدته كما تبخرت عشرات القصائد التى قيلت فى نفس

الموضوع وإن لم تقل بنفس الطريقة فقدر لها أن تتألق فى زمانها فترة ثم تنطفىء لكن محمود حسن إسماعيل حرص على أن ينمى التكنيك الذى أشرنا إليه وألا يكتفى باستخدام الطبيعة كزينة أو «كديكور» خارجى وإنما كأداة تعبيرية، وهو حين يصل إلى لب هدفه يتخلى قليلا عن صور الطبيعة المكثفة ولكنه يلجأ على الفور إلى صور البلاغة الفنية فيخلق من خلالها « طبيعة خاصة» وينجح فى المحافظة على المناخ الذى هيأه له جو « الطبيعة القانه» ولنتأمل فى المقطع التالى الذى يصور لب قضيته ونرى كيف كثف من استخدام صور « القلب» و«التورية» و«التكرار» و«النمو» و«المقابلة» لكى يخلق ذلك المناخ الفنى الذى أشرنا إليه :

ويد تحفن التراب لأخرى	رزقها من ترابها منتهاه
تبذر الحب ثم تسقيه بالدمع	وتبلى عروقها فى صباه
وهو فى صبره يواعد بالقوت	ويفتر بالأمانى شذاه
ويحين الحصاد يوما بكفيها	ولم تدر كفها من جناه
رجعت بالفراغ والجوع والحرما	ن من كل ذرة فى حصاه
تجد الرق فى الطريق فإن	همت إلى الخطو عاجلتها عصاه
تجد الرق فى الطريق فإن	خفت إلى النفس حاذرتها الشفاه
تجد الرق فى الهواء فما تنسم	إلا هجيره ولظاه
ضرب الرق فى الفضاء فلم يبق	فضاء لكائن فى حماه

إن الشاعر لا يترك المعنى يبرد بين يديه أو يتحول منه إلى التجريد ووسيلته لذلك تكمن فى إيقاظ الصور من موقف لآخر، بدءا من الصورة المجسدة للعمل المتواصل المقدس وهى صورة لا تبرز من خلالها إلا اليد المعروقة تحفى التراب وتبذر الحب يد أخرى، وشيئا فشيئا على طريقة الازدواج فى الصورة التى أشرنا إليها تحفن حميا الصبا من العروق لتظهر فى صورة أخرى مجاورة وموازنة لها وهى صورة الحب والزرع .

(وتبلى عروقها فى صباه) وكأن الصورتين ـ اليد والزرع ـ تحولتا إلى صورتين متداخلتين توزع الظلال عليهما فى لوحة رسام متمكن، أو تتداخل أضواؤهما فى صورة سينمائية أو تليفزيونية، وعندما تحين لحظة الحصاد فإن الشاعر لا تفلت منه صورة التورية التقليدية (ولم تدر كفها من جناه) فالذى جنى الحب جنى على ذراعه ، وعندما تبلغ الصورة قمتها يلجأ الشاعر إلى التكرار والنمو كوسيلة مفضلة لديه وتمثل ذلك فى الأبيات الثلاثة التى تفتتح بجملة « تجد الرق» ثم يتنامى بعد ذلك فإذا هو فى « الخطوة» وإذا هو فى « الكلمة»

وهما نغمتـان سبق أن عـزف عليهما الشاعـر كما أشرنا ثـم يتصاعـد ذلك الـرق فاذا هـو فى «الهواء» يسد على الناس منافذ الأفق، وتؤدى صورة التكرار على هذا النحو الدقيق وظيفتها التصويرية والشعورية التى أدتها للقصيدة العربية بـدءا من « قربا مربط النعامة منى» حتى اليوم.

إن الشـاعر كثيرا مـايلجـأ إلى التكـرار، على مستوى الحرف وعلى مستـوى الفعـل وعلى مستوى الجملـة وهى ظاهـرة تلفت النظر فى كثير من قصـائد محمود حسن إسماعيـل وهى كثيرة الشيوع فى القصيدة التى بين أيدينا.

لقد أردنا فقط التوقف أمام ظـاهرة « الحوار الخالق بين الشعر والطبيعة» فى هذا النص، وامتداداتـه وآثاره فى تشكيـل القصيدة، وتعاونـه مع الصـور البلاغيـة ولجوئه إلى أنماط من التصويـر الدقيق حاولنـا أن نستكشف كنه بعضهـا وأن نردها إلى وشائجهـا المتصلة بها فى الفنون الأخرى وأن نرى كيـف استطاع الشاعر من خلال هذا كلـه أن يجعل القصيدة جزءا من الكون، يربط شرايينها الدقيقة بروافده العظيمة ويجعلها تتناسق معه فى الحركة والسكون ويربط الإنسان مـن خلالها بالكائنات المحيطة به، فيجعله أكثـرها استعصاء على التسليم والرضوخ وأكثرها قوة على الحوار والمجادلة وتمثل العنـاصر وإعادة طرحها من جديد، وكل ذلك لايقدمه الشـاعر من خلال لغة فلسفية مجردة وإنما من خلال منهـج شعرى فى الربط والإيحاء والاستشراف والاقتراب والابتعاد، ومن خـلاله تفلت قصيدته مـن أن تكون رصدا للحظة عـابرة، وإنما تتحـول إلى ترسيخ لهذه اللحظـة فى عمر الزمـان وتأصيـل لها فى زوايا المكان.

وتأمـل الطبيعة هنا لا يبـدو تأملا سلبيـا يكتفى برصـد فوتجرافى للواقـع كما يحدث عند بعض الشعـراء. ولا يكتفى بخلـع مشاعـر الشاعر على ذلـك الواقـع وتلوينـه بها كما كان يحدث عند بعض الشعراء المجيدين من الجيل الـذى سبق محمود حسن إسماعيل من أمثال الشاعـر خليل مطـران. ولا يكتفى بـالحوار الفلسفى الهادئ مـع عناصر الطبيعـة كما كان يحدث لدى الشاعر المهجـرى الكبير إيليا أبو ماضى. ولكننا هنا نجـد حوارا عنيفا وأخذا وعطاء ونفـاذا من وراء ستائر الكـون المظلمة إلى دقات قلـب البشر خلفها ومزجـا لعناصر مختلفة مثل الكوخ والظلام والليل والريـاح والطيور والسكون والحيارى والمساكين والظالمين والشعاع والأسوار وكلها عناصر يعيد الشاعر صهـرها فى بوتقته وخلطها حتى لتبدو وكأنها عنصر واحد.

إن هذه النغمة الحوارية فى الحديث بين الشاعر والطبيعة تمتد فى لحظات الرضا امتدادها فى لحظات الاحتجاج ، وتسود لحظة التفاؤل كما تسود لحظة التشاؤم ولنستمع إلى هذه النغمة التى تسعى إلى لحظة الرضا من ديوان (هكذا أغنى) ، يقول الشاعر :

جنة للأفانين لفاء . نماها معذب فى حياته
شاعر فى الضحى يغنى فتصغى كل سوسانة . . على رابياته
سرق الطير شدوه حين فاضت خلجات الإيمان من أغنياته
وبكى النبت شجوه حين غنى وأذاع الشجون فى نبراته

إن غزارة إنتاج محمود حسن إسماعيل وطول المدة الزمنية التى غطاها ذلك الإنتاج ، جعلا شعره يواكب كثيرا من الحركات التجديدية التى شهدها الشعر العربى فى ثلاثة أرباع هذا القرن ، ويكفى أن نستعرض تواريخ صدور دواوينه للتدليل على هذه القضية ، فلقد صدر له ديوانه الأول : (أغانى الكوخ) عام ١٩٣٤ وهو لايزال طالبا بكلية دار العلوم ، ثم صدر له فى أعقاب تخرجه فى هذه الكلية ديوان (هكذا أغنى) عام ١٩٣٧ وصدر له ديوان (أين المفر) عام ١٩٤٨ ، وصدر له ديوان (نار وأصفاد) عام ١٩٥٩ وديوان (قاب قوسين) عام ١٩٦٤ ، وديوان (لابد) عام ١٩٦٦ و(التائهون) عام ١٩٦٦ ، وديوان (هدير البرزخ) عام ١٩٦٩ ، وديوان (صلاة ورفض) عام ١٩٧٠ ، وديوان (نهر الحقيقة) عام ١٩٧٢ وديوان (موسيقى من السر) عام ١٩٧٨ ، إن المدة التى تفصل صدور أول ديوان عن آخره تغطى قرابة نصف قرن من الزمان ، وهى فترة كانت ذات أثر خاص فى تطور الشعر العربى الحديث ، فتاريخ صدور الديوان الأول يتزامن مع قيام (جماعة أبوللو) وهى الجماعة التى كانت ثمرة التقاء الثقافة العربية بالثقافات الأدبية الأوروبية فى الربع الأول من هذا القرن ، وهى الجماعة التى يتصل نسبها أيضا بكبار شعراء العربية فى هذا القرن من أمثال أحمد شوقى أمير الشعراء ، وخليل مطران (شاعر الأقطار العربية) وأحمد زكى أبو شادى ، وقد كان كثير من إنتاج هذه الجماعة ينشر فى الصحف الأدبية التى كانت تتسرب إلى محمود حسن إسماعيل فى كوخه البعيد على ضفاف النيل فى قرية (النخيلة) .

ومن ناحية ثانية فإن جزءا كبيرا من هذه الدواوين ـ نحو ثمانية منها ـ يواكب زمنيا حركة الشعر الحر فى العالم العربى التى تعزى بداياتها إلى السياب والملائكة فى العراق وعبد الصبور وحجازى فى مصر بدءا من أواخر الأربعينيات وبداية الخمسينيات ، ومن الملفت للنظر أن شعر محمود حسن إسماعيل بدا قويا فى كل المراحل وبالقياس إلى كل الحركات ، فمع أن أصحاب الشعر الحديث وقفوا موقف الاتهام بالجمود والتحجر من الشعراء

السابقين عليهم. إلا أنهم أشادوا جميعا بشعر محمود حسن إسماعيل الذى يمكن أن يحير الدارس من الناحية الفنية فلا يعلم إن كان ينبغى أن ينسب إلى الشعر الحر أو الشعر التقليدى مع أنه فى الواقع (تقليدى مجدد) .

لقد تغلب محمود حسن إسماعيل فى بنائه الموسيقى للشعر على أزمة (تصنيف) الشعراء إلى قدماء ومحدثين وأثبت أنه ينبغى أن يقسم الشعراء فقط إلى شعراء (مجيدين) وشعراء (غير مجيدين) أيا كان الشكل الذى يكتب فيه الشعر، ولقد وجه شاعرنا اهتماما خاصا إلى الموسيقى الداخلية وإلى التنوع فى طول الأبيات من حيث الموسيقى الداخلية مع احتفاظه فى الوقت نفسه بقواعد الشعر العروضية عند الخليل ، فبدا فى وقت واحد ملتزما ومجددا ولنقرأ هذه الأبيات من ديوانه (أين المفر) :

ألقيتنى بين شباك العذاب وقلت لى غنى
وكل ما يشجى حنين الرباب ضيعته منى
هذا جناحى صارخ لا يجاب فى ظلمة السجن
ونشوتى صارت بقايا سراب فى حانة الجن
أواه يافنى . . لو لم أعش كالناس فوق التراب

فالتنويع الموسيقى الذى لجأ إليه الشاعر مسموح به فى إطار بحر (السريع) لكنه من خلال لجوئه إلى القافية الداخلية التى ترسم نهاية تفعيلات ثلاثة فى الشطر الأول او تفعيلتين إحداهما قصيرة فى الشطر الثانى ، والتزامه ذلك النظام فى كل الأبيات فيما عدا البيت الأخير الذى يلجأ فيه إلى عكس ذلك النظام بمعنى أنه يجعل الشطر الأول يتكون من تفعيلتين إحداهما قصيرة والشطر الثانى هو الذى يتكون من ثلاث تفعيلات، هذا اللجوء والتنويع جعلا المقطوعة تبدو غنية تجديدية ملتزمة فى وقت واحد ، وفى خلال ذلك يستغل محمود حسن إسماعيل كثيرا من إمكانيات التزيين الموسيقى فى الشعر العربى ويستفيد كثيرا من فن الموشحات والمسمطات مثل قوله فى ديوانه (قاب قوسين) :

لأنـــت فى فكـــرى
يـــافتنـــة القيثـــار
طيـف سبـى الخاطـر
ينســاب فى شعـــرى
متغلــــــق الأسرار
كهمســة الســاحــر

ومن خلال هذا الغنى الموسيقى قدم محمود حسن إسماعيل للأغنية العربية الحديثة كثيرا من روائعها والتى غناها محمد عبد الوهاب على نحو خاص .

إن الشاعر الذى بدأ حواره مع الطبيعة من أجل ساكنى الأكواخ المطحونين انتهى بالحوار مع النفس من أجل الوصول إلى الله ، وسادت أشعاره نزعة صوفية سامية تركزت فى الدواوين الأخيرة على نحو خاص ، وهى صوفية تجمع بين اعترافات أبى العتاهية وتبتلات ابن الفارض وتأملات أبى العلاء وتشف أحيانا حتى تبدو سهلة المنال ولكنها تدق أحيانا أخرى فتطوف فى عوالم يستعصى الوصول إليها على الكثيرين يقول محمود حسن إسماعيل فى إحدى قصائد ديوانه (موسيقى من السر) :

ظمئ الإيمان فى أعماق روحى ذات مرة
فامض ظمآن ولو شق لك المجهول صدره
واشرب السر من الحب ولو أعطاك جمره
وأشرب السر من الخطو ولو أسقاك صخره
واشرب السر من السر ولو لم تدر سره
واشرب الإيمان تسقى الصحو من آهات حسرة
ليس للإيمان أسوار وأصفاد بذاتك
لا ولا فيه مكان وزمان لحياتك
هو كل النور أنى ذقته فى سبحاتك
فترشف فضياء الله غطى طرقاتك

لقد أثار محمود حسن إسماعيل ككل الشعراء الكبار جدلا عنيفا حول شعره وتلقى اتهامات بالغموض وبالإفراط فى استخدام الرمز وبأنه صورة مشوشة تفتقد إلى الدقة وهى اتهامات تقترب من تلك التى وجهت من قبل إلى الشاعر الكبير أبى تمام والتى رد عليها عندما سأله أحد النقاد القدماء لم لا تقول مايفهم؟ فأجاب أبو تمام : ولم لا تفهم مايقال ؟

لكن الذى لا خلاف عليه أن صوت محمود حسن إسماعيل سوف يبقى من أقوى الأصوات الشعرية التى عرفها الشعر العربى فى عصرنا الملىء بالتطورات وفى تاريخ الشعر فن العربية الأول ، وأن انتاجه الغزير الثرى فى حاجة إلى أن نتعلم منه الكثير ونستخلص منه الكثير.

المبحث الثالث

الرّمز والبناء فى قصيدة الخيول

أمل دنقل

المعاناة التى يبذلها الشاعر أمام الكلمة المشعة والفارس أمام الخيل الجامحة، لاتختلف كل منهما فى مضمونها عن الأخرى كثيرا، فكل من الشاعر والفارس يسعى إلى أن يسيطر على المسار، ويتحكم فى التوجيه، ويستغل القوة المتاحة له فيشكلها فى درجة معينة من الحرارة، لا تنزل عنها فتبرد بين يديه، ولا ترتفع فوق طاقته على التوجيه فتوقعه تحت سنابكها، أو على الأقل تدع المرئيات والمسموعات أمامه مضطربة فتتحول إلى أشباح وضوضاء.

لكن هناك فرقا جوهريا يبقى مع ذلك بين لونى المعاناة، ويكمن فى اتجاه مسار الترويض فى كل منهما، فعلى حين أن الخيول برية الأصل، أو على حد تعبير أمل دنقل:

كانت الخيل ـ فى البدء ـ كالناس برية تتراكض عبر السهول

ومن ثم فإن اتجاه الترويض يكون نحو محور الاستئناس، فإن الكلمات المستأنسة يحاول الشاعر أن يردها من خلال الترويض إلى حالة « البرية» أو الطبيعية أو على حد تعبير جون بول سارتر:

« إن الشاعر قد اختار موقفا شعريا من الكلمات، وهو أن يتعامل معها على أنها «أشياء» لا « دوال»، إن المرء العادى حين يتكلم يضع نفسه وراء الكلمات قريبا من «الموضوع» لكن الشاعر يضع نفسه أمام الكلمات التى تعد بالنسبة للمرء العادى مروضة، وبالنسبة للشاعر فى حالة برية إنها بالنسبة للمرء العادى عرف وأدوات يستخدمها ثم يلقيها، ولكنها بالنسبة للشاعر أشياء طبيعية، تنمو نموا طبيعيا على الأرض كالحشائش والأشجار » (١).

---

(1) J. P.sartte. Qu' est - ce que La Litteratui e.P.18.

هذا التقابل بين محورى الترويض فى لونى المعاناة، تكاد تتجمع خيوط تشابكه وامتزاجه فى قصيدة الخيول لأمل دنقل (ديوان أوراق الغرفة [٨] ص ٥٩ ـ ٦٨) فهى قصيدة تتخذ من الخيول عنوانا لها ومحورا ظاهريا على الأقل لحركتها، وهى كذلك تتخذ من الكلمة والرمز أداة لها لترويض هذه الحركة والبلوغ بإيحاءاتها مدى أبعد بكثير مما توحى به للوهلة الأولى .

ومنذ اللحظة الأولى فى القصيدة يترك إيقاع الخيل وخببه أثره على موسيقى القصيدة التى جاءت على بحر الخبب (المتدارك) المعروف بتلاحق الإيقاع وسرعته :

١ ـ الفتوحات فى الأرض مكتوبة بدماء الخيول .

لكن الشاعر منذ البيت الثانى مباشرة يرينا أن فى يده زمام هذه الحركة ولجامها، وأنه يستطيع أن يحولها إلى سكون فى اللحظة المناسبة ، ويأتى ذلك من خلال اختياره للقافية الساكنة فى التفعيلة المبتورة فى البيتين الثانى والثالث :

٢ ـ وحدود الممالك

٣ ـ رسمتها السنابك

حيث نجد التفعيلة الأخيرة فى كل من البيتين تتكون من مقطع واحد (سبب خفيف) حركة فسكون، وقد جاء هذا المقطع تاليا لألف مد فى كلا البيتين، مما يمكن أن يعادل فى المرئيات صورة الربوة العالية يقفز من فوقها الفرس لكنه ينزل ثابت القدم، يتحكم فيه لجام الفارس فلا يدع فرصة حتى لصدى صوت رنين القفزة أن ينساب .

لكن البيت الرابع الذى يختتم الافتتاح التمهيدى للمقطع الأول من القصيدة، يعود مرة أخرى إلى إعطاء الإيحاء بالحركة والانسياب :

٤ ـ والركابان : ميزان عدل يميل مع السيف حيث يميل

بل إنه بزيادته تفعيلة على عدد تفعيلات البيت الأول ، يكاد يوحى باتساع مدى الحركة وتحولها إلى « هرولة» وهو بهذا يسلمنا من الناحية الموسيقية إلى درجة من النمو المعنوى تبدأ بها الفقرة التالية :

٥ ـ اركضى أو قفى الآن أيتها الخيل
٦ ـ لست المغيرات صبحا
٧ ـ ولا العاديات ـ كما قيل ـ ضبحا

٨ ـ ولا خضرة فى طريقك تمحى
٩ ـ ولا طفل أضحى
١٠ ـ اذا ما مررت به يتنحى
١١ ـ وها هى كوكبة الحرس الملكى
١٢ ـ تجاهد أن تبعث الروح فى جسد الذكريات بدق الطبول
١٣ ـ اركضى كالسلاحف
١٤ ـ نحو زوايا المتاحف

ومع هذه الفقرة يبدأ الفارس فى مواجهة حركة الخيل الجامحة، وهى مواجهة يشف عنها ـ إلى جانب كلمة « الآن » ـ وجود فعل الأمر فى افتتاح الفقرة وختامها وشيوع الفعل المضارع فى أثنائها، وهما لونان من الفعل يوحيان بالمواجهة والمعايشة، على عكس الفعل الماضى: «رسمتها السنابك» الذى ورد فى الافتتاح التمهيدى والذى لم يكن قد أعلن إلا رصد الحركة لا مواجهتها، وإن كان قد شف كما قلنا ـ من الناحية الإيقاعية ـ على إظهار القدرة على هذه المواجهة.

ولننظر الآن كيف طور الشاعر هذا الصراع المتشابك: لقد توسط حرف العطف « أو » فعلى أمر ترددا فى البيت الأول: « اركضى أو قفى» والدلالة الأولى لهذه الصيغة هى الاختيار والحرية، فللخيل أن تركض أو أن تقف، لكننا سنرى أن تطور بناء القصيدة سوف يسحب بساط الاختيار أو رماله من تحت سنابك الخيل، فالحرية الحقيقية فى الاختيار تتحقق عندما توجد القدرة الكافية للقيام بهذا العمل أو ذاك، لكن . . دفقات من الصور المتتالية بعد ذلك . تسحب عن الخيل إمكانية الركض أو جدوى التفكير فيه، وهى تصل إلى هدفها ذلك عن طريق مجموعتين من الصور: أولاهما تسلك طريق النفى «لست . . ولا . . ولا» [الأبيات ٦ ـ ١٠] وثانيتهما تسلك طريق الإثبات المجوف الساخر [الأبيات ١٥ ـ ٢٠]:

١٥ ـ صيرى تماثيل من حجر فى الميادين
١٦ ـ صيرى أراجيح من خشب للصغار الرياحين
١٧ ـ صيرى فوارس حلوى بموسمك النبوى
١٨ ـ وللصبية الفقراء حصانا من الطين
١٩ ـ صيرى رسوما ووشما
٢٠ ـ تجف الخيوط به مثلما جف فى رئتيك الصهيل.

ولنلاحظ هنا أولا أن صور الإيجاب تقود إلى ماتقود إليه صور النفى وأن الخيار الوهمى الذى طرحه تعدد فعل الأمر وتوسط أداة العطف « أو » فى صدر المقطع، يسقط وحده، عندما نجد فعل الأمر يعود فى نهاية المقطع منفردا لا متعددا .

٢١ ـ اركضى كالسلاحف نحو زوايا المتاحف .

لكن السخرية تتضاعف جوانبها عندما نجد أن فعل الركض نفسه لم يسقط هنا مع أن كل عناصره سقطت فى الصور السابقة له واللاحقة عليه ، ومع أنه هو نفسه تحول إلى ركض السلاحف نحو زوايا الموت والعدم .

ولنعد مرة أخرى إلى مجموعتى صور النفى والإثبات اللتين جردتا الركض من فحواه، ولنقف عند خاصتى « النمو» و«التقابل» فيهما، فالمجموعة الأولى [٦ ـ ١٤] تعطى إيحاء الجسد الذى ارتمى ولكنه مازال ينبض، ومن ثم فان كل صورة منها تنفى « طاقة» ولكنها تشير فى الوقت ذاته إلى أن هذه الطاقة كانت موجودة : « لست المغيرات . . ولا العاديات . . ولا طفلا أضحى . . » لكن المجموعة الثانية [١٥ ـ ٢٠] تتعامل مع هذا الجسد وقد سكن فيه كل شىء حتى النبض : « صيرى تماثيل . . أراجيح . . فوارس حلوى» . والعجيب أن الإيحاء بالطاقة يأتى من خلال وسائل « النفى» الشائعة فى المجموعة الأولى، على حين يأتى الإيحاء بالخمود من خلال وسائل « الإثبات» الشائعة فى المجموعة الثانية، وهذا نمط بنائى يتجاوز مجرد التناقض : الظاهرى بين الأداة اللغوية والأداء الشعرى إلى الإيحاء العميق بالزيف الكامن وراء ظواهر الأشياء، فليست الحركة بالضرورة وجودا، ولا السكون بالضرورة عدما .

تتكامل إذن مجموعتا صور النفى والإثبات فى الوصول إلى الهدف، لكنهما أيضا فى سبيل ذلك تتقابلان لإظهار حدة السلب، وإذا تأملنا كل صور المجموعة الثانية، نجد أن فى كل منها جوابا أو قرارا ساخرا لإحدى صور المجموعة الأولى فالخيل التى كانت تغير وتعدو فى ميادين الحرب [٦ ، ٧] تصبح تماثيل من حجر فى الميادين [١٢] وتلك التى كانت تخيف الأطفال فيتنحَّون عن طريقها)٩ ، ١٠) تصبح أراجيح من خشب لهؤلاء الصغار [١٦] وخيل موكب الحرس الملكى المهيب [١١] تصبح فوارس حلوى فى موكب المولد النبوى [١٧] .

إن كل هذا التشابك والتعدد فى الوسائل الفنية هو الذى يبرر هذا التنوع فى استخدام «فعل الأمر» مفتاح الموقف فى هذا المقطع، وتحوله فى البدء من أداة اختيار: « اركضى أو

قفى» [ولنشر إليهما بهاتين العلامتين : اركضى↑ ـ قفى ●] إلى أداة إشعار بحتمية التقهقر فى نهاية المقطع : اركضى نحو زوايا المتاحف [ولنشر إلى هذا الموقف بالسهم المائل ↓] .

لكن الخيل التى شغلت الشاعر وشغلتنا حتى الآن ، ليست إلا رمزا مكثفا ومعبرا للهدف الحقيقى للقصيدة وهو « الناس» ، والقصيدة لا تكف على امتداد المقطع عن القيام بمناورات « الالتحام» بين الرمز والمرموز إليه لكن هذا لالتحام يتم ببراعة عندما تتحول الخيل إلى « وشم » تجف خطوطه فوق « ذراع» الإنسان أو جبهته ، ولكنه أيضا التحام سلبى خادع ، فهو ليس الالتحام الذى يعطى للإنسان قوة الخيل ، ولكنه التحام من خيل جف فى رئتيها الصهيل ، ومن ثم فهو التحام يحمل معه كل مظاهر السلب التى تناثرت على طول المقطع ، وكما مهد الإيقاع فى نهاية تمهيد القصيدة لظهور المقطع الأول فإن الالتحام فى نهاية هذا المقطع يمهد لظهور المقطع الثانى :

٢٢ ـ كانت الخيل ـ فى البدء ـ كالناس
٢٣ ـ برية تتراكض عبر السهول
٢٤ ـ كانت الخيل كالناس ، فى البدء
٢٥ ـ تمتلك الشمس والعشب والملكوت الظليل
٢٦ ـ ظهرها لم يوطأ لكى يركب القادة الفاتحون
٢٧ ـ ولم يلن الجسد الحر تحت سياط المروض
٢٨ ـ والفم لم يمتثل للجام
٢٩ ـ ولم يكن الزاد بالكاد
٣٠ ـ لم تكن الساق مشكولة
٣١ ـ والحوافر لم يك يثقلها السنبك المعدنى الثقيل
٣٢ ـ كانت الخيل برية
٣٣ ـ تتنفس حرية
٣٤ ـ مثلما يتنفسها الناس فى ذلك الزمن الذهبى النبيل

لقد تم الالتحام إذن بين الرمز والمرموز إليه ، وأصبح يصيب كلا منهما ما يصيب الآخر طردا وعكسا ، والذى أصاب كلا منهما هو الانحسار الذى تقدمه القصيدة هنا أيضا على طريقة « النمو التتابعى» من خلال الاعتماد على سلسلتين من صور الإثبات [٢٢ ـ ٢٥ و٣٢ ـ ٣٤] يتوسطها سلسلة من صور النفى [٢٦ ـ ٣١] يتكرر فيها حرف النفى « لم» ست مرات ، ويلاحظ أن كل أفعال هذا المقطع تأخذ صيغة الماضى حتى وإن لم تأخذ

صيغته وذلك من خلال أداة النفى « لم» التى تحول المضارع إلى ماض، والفعل المساعد «كان» الذى يعطى للمضارع معنى الماضى الناقص، ومن خلال هذا الجو « الماضوى» تتحول كل عناصر الإيجاب والمجد فى الرمز والمرموز إليه ، إلى ماض يتحسر عليه بالنسبة للخيل والإنسان والحضارة التى يرمزان إليها .

مادام الالتحام قد تحقق بين الرمز والمرموز إليه ، فلا بأس من العودة مرة أخرى إلى الرمز لطرح الخيار السابق عليه، وهو خيار لا يوجه إليه هذه المرة وحده ولكنه ينسحب بالضرورة على صداه وظله .

٣٥ ـ اركضى أو قفى

٣٦ ـ زمن يتقاطع

٣٧ ـ واخترت ان تذهبى فى الطريق الذى يتراجع

وإذا أعدنا التذكير بالخيار الأول ونتيجته وقارنا به الخيار الثانى ، لرأينا التحول واضحا، ولنوضح ذلك من خلال العلامات التالية :

الخيار الأول = اركضى ↑ أو قفى ● النتيجة : اركضى كالسلاحف .

الخيار الثانى = اركضى ↑ أوقفى ↑ النتيجة : اذهبى فى الطريق الذى يتراجع .

فإذا أضفنا إلى ذلك ، المدى الزمنى الذى تقدمه القصيدة بين طرح الخيار والوصول إلى النتيجة فى كل منهما، حيث يستغرق « النقاش» فى الحالة الأولى مقطعا بأكمله، ولا يفصل بين الخيار والنتيجة فى المقطع الثانى مجرد بيت واحد، إذا أضفنا هذا رأينا كثافة المواجهة وحدتها وحتمية الطريق الواحد للرمز والمرموز إليه ، للخيل والناس والحضارة التى يمثلانها، ويعيد الفعل المضارع للظهور مرة أخرى ليؤكد أننا لسنا بصدد الحديث عن الماضى ولكن عن المواجهة :

٣٨ ـ تنحدر الشمس، ينحدر الأمس

٣٩ ـ تنحدر الطرق الجبلية للهوة اللانهائية

لكن ذلك الانحدار الذى يبدأ انحدارا طبيعيا، ويرتبط بظواهر من شأنها أن تمر بدورة الانحدار ، تزداد حدته ازدياد حدة الصخر الهاوى من قمة الجبل، فإذا به يدمر ويعكس الظواهر، ويعود إلى التقهقر مامن شأنه أن يتقدم :

٤٠ ـ كل نهر يحاول أن يلمس القاع

٤١ ـ كل الينابيع إن لمست جدولا من جداولها تختفى

٤٢ ـ وهى لا تكتفى
٤٣ ـ فاركضى أو قفى
٤٤ ـ كل درب يقودك من مستحيل إلى مستحيل

هكذا تنغلق كل الطرق ، ويقترب شبح الرمز مـن المرموز إليه اقترابا يوحى بذوبان الأول فى الثانى ، وسنـرى كيف يتقدم بناء القصيدة ليحقـق ذلك ببراعة فنية ، فإذا أعطينـا للرمز (الخيل) القيمـة « ص » وللمرمـوز إليه (الناس) القيمـة «س» فإن خـط مقاطـع القصيدة سوف يسير على النحو التالى :

المقطع الأول = ص (الخيل محور الحديث)
المقطع الثانى = ص ← س (الخيل مقارنة بالناس)
المقطع الثالـث (كما سنرى) = س ← ص → س (الناس يواجهون الناس من خلال الخيل) .

٤٥ ـ الخيول بساط على الريح
٤٦ ـ سار على متنه الناس للناس عبر المكان
٤٧ ـ والخيول جدار به انقسم الناس صنفين
٤٨ ـ صاروا مشاة وركبان
٤٩ والخيول التى انحدرت نحو هوة نسيانها
٥٠ ـ حملت معها جيل فرسانها

إن انحصار الـرمز « ص » بين « س » و «س » يجعل القصيدة تكـاد تلغى الرمـز وتنفل المواجهة إلى المرموز إليه ، الناس والحضارة التى يـرمزون إليها وهى كما تدل كثير من إشارات القصيدة ، حضارتنا المعاصرة ، وماتتضمنه من عبثية الاختيار التى يقوم بها :

٥١ ـ أشباح خيل
٥٢ ـ وأشباه فرسان
٥٣ ـ ومشاة يسيرون ـ حتى النهاية ـ تحت ظلال الهوان
٥٤ ـ اركضى للقرار
٥٥ ـ واركضى أو قفى فى طريق الفرار
٥٦ ـ تتساوى محصلة الركض والرفض فى الأرض

إن الضوء الأخير الذى تلقيه القصيدة على الرمز المتعب ، والمرموز إليه الخاوى الأجوف ، يبين عن طريق إلقاء الضوء على الحصاد ، كثافة الكارثة :

٥٧ ـ ماذا تبقى لك الآن ؟
٥٨ ـ ماذا ؟
٥٩ ـ سوى عرق يتصبب من تعب
٦٠ ـ فى جيوب سلالاتك العربية
٦٢ ـ وفى المرأة الأجنبية تعلوك تحت ظلال أبى الهول
٦٣ ـ هذا الذى كسرت أنفه
٦٤ ـ لعنة الانتظار الطويل

وما دامت الخيل هى رمز حضارة « الشرق» المجهد ، فإن اللحن الجنائزى يأتى مع انسدال الستار على المشهد الحزين حين تستدير مزولة الوقت إلى « الغرب» :

استدارت إلى الغرب مزولة الوقت
صارت الخيل ناسا تسير إلى هوة الصمت
بينما الناس خيل تسير إلى هوة الموت .

(١)

الفتوحات فى الأرض مكتوبة بدماء
الخيـول
وحدود الممالك
رسمتها السنابك
والركابان : ميزان عدل يميل مع السيف
حيث يميل

* * *

اركضى أو قفى الآن أيتها الخيل
لست المغيرات صبحا
ولا العاديات ـ كما قيل ـ ضبحا
ولا خضرة فى طريقك تمحى
ولا طفل أضحى
إذا مامررت به يتنحى
وها هى كوكبة الحرس الملكى
تجاهد أن تبعث الروح فى جسد الذكريات
بدق الطبول
اركضى كالسلاحف
نحو زوايا المتاحف

* * *

صيرى تماثيل من حجر فى الميادين
صيرى أراجيح من خشب للصغار
الرياحين
صيرى فوارس حلوى بموسمك النبوى
وللصبية الفقراء حصانا من الطين
صيرى رسوما ووشما
تجف الخطوط به مثلما جف فى رئتيك الصهيل

(٢)

كانت الخيل ـ فى البدء ـ كالناس
برية تتراكض عبر السهول
كانت الخيل كالناس فى البدء
تمتلك الشمس والعشب والملكوت الظليل
ظهرها لم يوطأ لكى يركب القادة الفاتحون
ولم يلن الجسد الحر تحت سياط المروض
والفم لم يمتثل للجام
ولم يكن الزاد بالكاد
لم تكن الساق مشكولة
والحوافر لم يك يثقلها السنبك المعدنى
الصقيل
كانت الخيل برية
تتنفس حرية
مثلما يتنفسها الناس فى ذلك الزمن الذهبى
النبيل

* * *

اركضى أو قفى
زمن يتقاطع
واخترت أن تذهبى فى الطريق الذى
يتراجع
تنحدر الشمس ينحدر الأمس
تنحدر الطرق الجبلية للهوة اللانهائية :
الشهب المتفحمة
الذكريات التى أشهرت شوكها
كالقنافذ

والذكريات التى سلخ الخوف بشرتها
كل نهر يحاول أن يلمس القاع
كل الينابيع إن لمست جدولا من جداولها
تختفى
وهى لا تكتفى
فاركضى أو قفى
كل درب يقودك من مستحيل إلى مستحيل

(٣)

الخيول بساط على الريح
سار على متنه الناس للناس عبر المكان
والخيول جدار به انقسم الناس صنفين
صاروا مشاة وركبان
والخيول التى انحدرت نحو هوة نسيانها
حملت معها جيل فرسانها
أشباح خيل
مشاة يسيرون ـ حتى النهاية ـ تحت ظلال الهوان
اركضى للقرار
واركضى أو قفى فى طريق الفرار
تتساوى محصلة الركض والرفض فى الأرض
فى جيوب سلالاتك العربية
ماذا تبقى لك الآن؟
ماذا ؟
سوى عرق يتصبب من تعب
وفى المرأة الأجنبية تعلوك تحت ظلال أبى الهول
يستحيل دنانير من ذهب
هذا الذى كسرت أنفه
لعنة الانتظار الطويل

المبحث الرابع

ديوانُ الدائرة المُحكمة

فاروق شوشة

فاز الشاعر فاروق شوشة بجائزة الدولة التشجيعية فى الشعر هذا العام، عن ديوانه «الدائرة المحكمة» الذى صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٨٣ .

ومع أن هذه الجائزة قد وصلت إلى فاروق شوشة متأخرة بعض الوقت إلا أنها تسجل تتويجا رسميا للتكريم الذى يلقاه هذا الشاعر من محبى الشعر ومتذوقيه منذ أكثر من ربع قرن نجح خلاله فاروق شوشة فى أن يقدم نموذجا منفردا « للشاعر» ودوره فى الحياة الأدبية المعاصرة، فلقد استطاع فاروق شوشة أن يصل إلى « الجمهور» وأن يجسد أمام عينيه نموذج « الشاعر» وأن يكون مدخله إلى حب ذلك الفن الرقيق الجميل .

ولا شك أن موقعه فى أجهزة الإعلام ساعد قليلا فى هذا الاتجاه ولكن الذى لاشك فيه كذلك أن مواهبه المتعددة هى التى أحلته هذه المكانة لدى الجمهور، بل إن بعض هذه المواهب ظلمته من بعض الزوايا، ويمكن أن نشير إلى موهبة الإلقاء أو الصوت الجميل، ومن هذه الناحية فإن صوت فاروق شوشة يحقق عنصرا رئيسيا من عناصر القصيدة العربية وهو عنصر « السماع» وإمتاع الأذن، وهو الذى ولدت القصيدة العربية فى رحابه وعرف الشعر بأنه « إنشاء وإنشاد» ولقد ظل فاروق شوشة يمثل صوته نموذج القصيدة «المسموعة» التى تصل إلى الجمهور العام، فى مقابل « القصيدة المقروءة» التى يكاد يقتصر التمتع بها على الجمهور الخاص ولقد أعطى فاروق شوشة الشاعر من خلال موقعه الاعلامى، صوته لقصائد الآخرين. قدماء، معاصرين . أكثر مما أعطاها لقصائدة هو. ومن ثم حجب ـ عن رضا ـ جزءا من شاعريته فى سبيل الإرضاء «للشعر» وجمهوره العام .

لقد منحت الجائزة لفاروق شوشة عن ديوانه « الدائرة المحكمة» مع أن إنتاجه الشعرى غزير يمتد من ديوانه « إلى مسافرة» الذى صدر فى عام ١٩٦٦ . إلى ديوان « لغة من دم العاشقين» . مرورا بالجزء الأول من « الأعمال الكاملة! الذى صدر فى مجلد ضخم عام ١٩٨٥ . لكن هذا الديوان الذى اختارته لجنة الجائزة يمثل شريحة متوسطة من نتاج الشاعر يمكن أن تحمل كثيرا من خصائص شعره كما تحمل الخلية الصغيرة كثيرا من خصائص الجسد .

لاتتجاوز صفحات الديوان فى طبعته الأولى ثمانين صفحة من القطع الصغير تضم اثنتى عشرة قصيدة ، ولكنها تحمل كثيرا من قضايا الشاعر التى تبناها وطورها فى الشكل والبناء والمضمون فى ربع قرن ، من حيث الشكل توجد قصائد تنمى إلى شعر الشطر وأخرى تنمى إلى شعر السطر، فقصيدتا « سكن العبير» و«عابرة» تنتميان إلى الشطر التقليدى ، الأولى من الكامل الأحذ والثانية من السريع وبقية قصائد الديوان تنتمى إلى شعر السطر الذى يلتزم فى كل قصيدة تفعيلة واحدة ، فيما عدا قصيدة « الرحلة أكتملت» التى زاوج فيها الشاعر تفعيلتى المتقارب والمتدارك وهذا التنويع الثلاثى فى الشكل يمثل مجمل مادارت فيه قضية الشكل فى الشعر طوال هذه الحقبة على أننا إذا تجاوزنا فى الشكل قضية « السطر» أو «الشطر» إلى موقف الشاعر العام فإننا نجده يؤكد انتماءه إلى كلا التيارين أو إلى الشعر الجيد أيا كان شكله .

ومن خلال هذا الموقف الذى تمثل شريحته الواردة هنا جزءا منه فإننا نجد البناء الداخلى الموسيقى لافتا للنظر فى الدائرة المحكمة وهو يؤكد هذه الخاصة القوية التى تتميز بها « القصيدة المسموعة» من غنى القوافى الاختيارية الذى يسمح للتيار بأن يظل متصلا بين القصيدة والمتلقى وهو نهج يحرص عليه الديوان فى مجمله وفى المرات القليلة التى يتخلى فيها عن هذا النهج يحس قارئه بغرابة المذاق الموسيقى الذى اعتاد عليه فى مثل هذا المقطع :

الندامى سكروا من غير راح
والذى يبرق فى الأيدى سلام أم سلاح
نحن أغمدناه فى أحشائنا
ورقصنا رقصة الموتى على أسلافنا
وغرزناه وئيدا فى الحنايا والجراح
حيث فتشنا عن الراية
لم نخرج على القول المباح

إن هذا البناء الموسيقى يدعمه نسيج محكم للصورة ، وتتحول بفضله لكى تشكل لحمة القصيدة وسداهـا فى معظم الأحايين وتنتزعها مـن هذا التجريد الفلسفى الـذى تجنح إليه كثير من القصـائد المعاصرة ، والصورة فى ديـوان الدائرة المحكمـة لا تلبس قناعـا واحدا، وإنما ترفد القصيدة من زوايا متعددة وتتعامل مع نسجها فى صور مختلفة ، فهى أحيانا تأخذ شكل اللقطـات السريعة المتعـاقبة ، وأحيـانا تـأخذ شكـل الجزئية الهادئة الأنفـاس والتى تتوازى فيما بينها أو تتقاطـع أو تتقابل ولكنها تتحرك جميعا نحو غايـة واحدة ، ولعل مطلع قصيدة « يدوسنا عـام جديد» تمثل قناعا مـن أقنعة الصور السريعة المتلاحقة والتـى تندفع كأنها زخات المطر الفجائية .

وانتظرناك . . فلما جئت . ماذا فى يدك
الدم المسفوح ما زال
غبار الموت
أنات الثكالى والسبايا
والصدى المذعور ما زال
هتاف الرعب
صوت الباعة الحمقى
ويد تقذف بالأفعى فتلتف
وفتيان نحو صوت المنايا
أملا فى شاطئيك

وفى المقـابل نجـد قصيدة أخـرى مثل « الشعـر فى هذا الـزمان» تنمـى تكنيكا آخـر فى التصوير، يعتمـد على ثلاث لوحات تأخذ كـل منها اتجاها خاصا ولكنهـا تتعادل فى نهاية المطاف من خلال توازى عناصر السلب والإيجاب ، وهـو تواز يبدو فى داخل كل لوحة على حدة ثم يطرح ظلاله على مجمل اللوحات .

فى اللوحـة الأولى تبدو نغمـة « الزيـف الصاعـد» وإذا كان الصعـود قيمة إيجابيـة فإن الزيف قيمة سلبية تعادلها وتتصاعد الصور داخل اللوحة على هذا النحو :

يا حد السيف المرهف والقاطع
ها . . خذ فى القوم براحك لا تترد
واقذف برءوس حان قطاف ذوائبها
وتعرى وجه دمامتها وغرابتها

فى وحل الليل المرصود الساطع
هذا عصر الوالغ فى كأس أخيه
العارض سوءته فى سوق ابدا لاتنفذ
هذا عصر المتورم جهلا
من يوقظه ؟ من يثنيه ؟
نعرفه ندرك حطته ، لكن فى خلوتنا نبكيه
نحذر أن نغمد فيه الرأى الفاجع
حتى لا ينهار الحقل الجامع والذائع
وتدوم دمامة هذا الوجه المتجدد

ولعل من اللافت للنظر أن قصيدة يدور موضوعها حول « الشعر» تبدأ بصورة حول «السيف» لكى ترسم المفارقة الحادة بين الإيحاء الشائع عن ملمس الشعر والإيحاء المتصور عن ملمس السيف ، وكيف أن مفارقات العصر تجعل الإيحاءين يتلامسان ، حتى إذا ما وصلنا إلى نهاية المقطع فإذا بالكلمة تصبح ذات نصل يغمد (نحذر أن نغمد فيه الرأى الفاجع) ولكى يصل المقطع بالشعر إلى هذا الحد فإنه يمر فى حقل من الأفعال وردود الأفعال ومن المتسق مع طبيعة الشعر التى تخرج على الترتيب المنطقى النثرى الذى يطلق الفعل ثم يترقب صداه ورده ، إن ترتيب الصور هنا جاء معكوسا فبدأت برد الفعل من خلال السيف الذى يقطف الرؤوس التى حان قطافها ، قبل أن يرصد ما جنته هذه الرؤوس من ولغ فى الكأس وعرض للسوءة ، ولم يكتف المقطع بهذا الصراع المتزايد الذى أحدثه بين قيم السلب والإيجاب والفعل ورد الفعل فأراد أن يضيف صراعا آخر فى نهاية المقطع بين الإحساس وتزييف التعبير عنه من خلال عنصر التعليق الخارجى : «نعرفه ندرك حطته ، لكن فى خلوتنا نبكيه» وهى صورة تصل بأزمة نقاء الشعر المثالى فى مواجهة الواقع المتعفن إلى أقصى مدى لها ، فنحن أصبحنا جزءا من دائرة الزيف نقول غير مانعتقد ، ونعرف الحطة لكن نبكى صاحبها ، ولا أدرى إلى أى حد تنجح عبارة ـ فى خلوتنا ـ التى تحاول أن تعمق هذا التناقض ، فى تحقيق هدفها ، هل تريد أن تصل بالعفن إلى حد النخاع؟ وألا يتعارض ذلك قليلا مع خيط الأمل الذى يعطيه المقطع الثانى والذى يقدم فى الواقع الصورة المقابلة للزيف الصاعد ، وهى صورة « الصفوة الهابطة» والتى تملأ هذه الأبيات :

يشقق وجه الأرض ، يطل العابر فى عمق الهوة
الصمت يموج

الراس يدور
الصوت النائى يصّاعد
من قاع الهوة يصّاعد
مذبوحا مخنوق الشهوة
ركلته الأقدام الحمقى
وانهالت سافية العدم الأسود
وارتحنا
فالقشرة عادت مجلوة
ها أنت تحدق مذعورا
ووحيدا من خلل الكوة
فافغر ما شئت فما
وانزف ما شئت دما
واهتف بالقادم لا يدنو
فالهوة تبتلع الصفوة
كمدا فى الخلوة أو ندما

إن هذا المقطع يتعادل مع المقطع السابق من حيث إنه يقدم الصورة المقابلة لتعانق السلب والإيجاب ، وإذا كان المقطع السابق قد لخص بأنه « الزيف الصاعد (– +) فإن هذا المقطع يلخص بأنه الصفوة الهابطة (+ –) ومن هذه الزاوية يتقابل المقطعان ويتكاملان ، ومن ناحية ثانية فإن البناء الفنى يتحد فى المقطعين كليهما ، وإذا كنا قد لاحظنا فى المقطع السابق تقدم رد الفعل على الفعل أو لنقل بعبارة أخرى تقدم النتيجة على السبب ولا حظنا كذلك تدخل عنصر التعليق متمثلا فى : (نعرفه . . لكن . . نبكيه) فإننا نلاحظ تحقق الهيكل الفنى ذاته فى المقطع الذى معنا ، فلم يشأ المقطع أن يبدأ مثلا بصورة « ركلته الأقدام الحمقى » وهى تمثل السبب فى الحدث الرئيسى ، وإنما بدأ بها بعد ذلك بل بها بعد البعد ، فترتيب الحدث فى منطق الصياغة النثرية سوف يكون على النحو التالى : (ـ ركلات الأقدام ـ وقوع فى الهوة ـ مرور الزمن ـ انسداد الهوة ـ مرور الزمن ـ تشقق الأرض ـ صعود الصوت ببطء ـ إطلالة العابرين ـ تموج الصمت ـ دوار الرأس) لكن البناء الشعرى عندما يعمد إلى هذه المجموعة من الصور التى تشكل الحدث يعيد ترتيبها لأن الترتيب جزء رئيسى فى الصياغة الشعرية ، فالحدث الشعرى ليس حدثا امتداديا يتحرك

على خط مستقيم تقـود فيه المقدمات إلى النتـائج وإنما هو حدث ذو طبيعة دائريـة التفافية وهذه الطبيعـة تشكل جزءا رئيسيـا من عمل القصيـدة وتأثيرهـا فى المتلقى، ومن هنـا فإن الشاعر فى اللوحة التى معنا يبدأ بصورة : « يتشقق وجه الأرض» ولنلاحظ أن صيغة الفعل « يتفعل » تساعد فى إعطاء بعد زمنى واسـع المدى فالتشقق يحدث من تلقاء نفسه بعد فترة زمنية غير معلـومة من نقطـة البدء، وتتدخـل الصيغة اللغـوية مرة أخـرى فى تحديد المدى الـزمنى مـن خـلال الفعـل « يصاعـد» الـذى يتكـرر فى بيتين متتاليين « الصـوت النـائى يصاعد. . . من قاع الهوة يصاعد» فحدث الصعـود من خلال الفعل يصعد، يختلف عن الحدث نفسه من خـلال الفعل « يصاعد» الـذى يهب الإيحاء بالبطء والضعف والـوهن، وهو مـن خلال قـرائن أخرى تـأتى فى البيتين مثـل الصفة فى البيـت الأول « النائى» وشبـه الجملة فى البيت الثانى « من قاع الهوة» من خلال هذين العاملين اللغويين يضاف إلى البعد الزمنى المتراخى الممتـد بعد مكانى سحيق يضاعف الإحساس بحـدة الشعور الذى تسعى القصيدة إلى رسمـه، وبالنقطـة التى وصلـت إليها القيـم الصافيـة التى يسعـى الشعر إلى استشرافها وإنعاشها .

ويأتى عنصر التعليـق الخارجى : « وارتحنا . . فالقشرة عادت مجلوة» لكـى يعمق ذلك الإحساس المر، بـامتداد مشـاعر السلب إلى كـل اتجاه ولكى يجسد فى مجمـوعة مـن الصور المتتالية الذعر والوحدة واليأس التى تحيط بساكن الكهف المنزوى . .

إن هاتين اللوحتين تبدأ كل منهما من نقطة بعيـدة، وتأخذ كما رأينا اتجاها مختلفا ولكنهما تتكاملان فيما بينهما، وتتفقـان على جذب النقطتين البعيدتين إلى أرض الواقـع وعلى النزول عن صهوة الحلم ، ولمس تراب الأرض، وعلى أن يحاول الشعـر أن يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق وعليه أن يـأخذ حذره وهو يـؤدى واجبه، وأن يصطنع لنفسه حـواس تلائم المناخ الجديد المحيط به وأن تبقـى فجوات قد تبتلع خطاه وأن يتوقع بين لحظـة وأخرى هجمة من شبح قدرى مجهول :

انظر حولك
وتأمل هذى السوق العارية المشهورة
فالكل يبيع ويسقط فى المحذور
واشحذ سيفك
قد تقطع يوماهذى الكف الممدودة
لا تدرى سم أناملها

أو حجم الطلقة فى الديجور
لو تدرى الغيب الكامن فى المجهول
لاخترت العيش طليقا وبعيدا
لكن ها أنت تدور وتسقط فى شرك المجهول
مقتولا برصاص قصيدة

وعلى هذا النحو تصل القصيدة بمنطقها الخاص لا بمنطق النثر إلى أن تنمى إحساسا حول الشعر تصل به مع المتلقى إلى المدى الذى تريده.

* * *

هناك لون ثالث من ألوان التصوير فى الديوان يشد القارئ إليه وهو هذا اللون الذى يعتمد على التقابل بين محورين أحدهما ثابت والآخر متحرك، ولعل قصيدة « الدائرة المحكمة» التى تخلع على الديوان عنوانها تمثل نموذجا جيدا لهذا اللون والذى يمكن أن يطلق عليه القصيدة الصورة، والقصيدة ـ وهى من أعذب قصائد الديوان ـ تحتمى بضمير المتكلم المذكر والمخاطبة المؤنثة، ولسوف نرى أن المتكلم هو الذى سيصدر عنه طوال الوقت الحديث ويظل الصمت مخيما على المخاطبة، ويفعل هذا الصمت فعله فى ازدياد حدة الظنون والمخاوف والتوجس والتردد والانشطار، وكلها مشاعر تمهد للحظة الختام الفاصلة التى تند عن المخاطبة فيها حركة تبتلع فيها كل شىء.

أجيئك

مزدحما بالوعود

مضيئا كدائرة البرق

منتظرا لانهار السواقى

ألاصق عربى بجدران عزلتك الموحشة

تلوح للعابرين الحيارى

أن انغمسوا فى رحابى

ولوذوا ببابى

وسيحوا دروبى ممتدة مدهشة

هكذا يبدأ المقطع بهذه المجموعة من الصور المتلاحقة المتدافقة التى لايفصل بينها حروف العطف إلا فى الجزء الأخير منها، وهذه الصورة تكون فيها بينها مجموعتين صغيرتين متساويتين، فهناك ثلاث صور تأتى مسندة إلى الصوت الرئيسى فى القصيدة ، صوت المتكلم المفرد وهى تلك الصور التى تأتى فى صيغة «الحال»: «مزدحما . . مضيئا . . منتظرا» يقابلها ثلاث صور أخرى تأتى مسندة لصوت فرعى هو صوت جدران العزلة التى تصدر ثلاث إشارات متتالية فى صيغة فعل الأمر: «انغمسوا . . لوذوا . . سيحوا» وإن كان يمكن ملاحظة أن ترتيب الحركات الثلاث ربما يجعل اللواذ بالباب قبل الانغماس فى الرحاب، والشاعر يجعل الخط الفاصل بين هاتين المجموعتين هو القافية التى تصل وتفصل بينهما فى وقت واحد (موحشة . . مدهشة) ولا يقتصر تناغم نهاية المقطعين من حيث القافية على اتفاق حرف الروى فقط بل يمتد إلى نوع القافية أيضا، فجميع الأبيات تنتهى بقافية متحركة ويقتصر اللجوء إلى القافية الساكنة فى المقطع على هذين البيتين .

وإذا كانت القافية قد لعبت هذا الدور فى مقطع الافتتاح، فإنها سوف تزداد كثافة وظهورا فى المقطع التالى، وترتبط كثافتها عادة بازدياد درجة الشعور ، ولابد من القول هنا بأن قصائد فاروق شوشة ، تكتسب قيمة فنية عالية مع غنى القافية والموسيقى الداخلية ، ويؤثر غياب هذين العنصرين أو أحدهما على متعة القارئ بها، ولنتأمل هذا المقطع الغنى المكثف :

وانشطر اثنين
بعض يلاعن يوم قدومى لديك
وبعض يبارك يوم انتسابى إليك
وأمضى
تلاحقنى دهمات انشطارى
ويصلبنى فى الميادين جوعى وعارى
وذل انتظارى
وأرجع معتنقا بانكسارى

إن مفتاح الدائرة المحكمة يكمن فى البيت الأول فى هذه المقطوعة «وانشطر اثنين» ويلقى بظله على الصور التالية له ، وإذا كان الانشطار معناه أن بعضه يلاعن وبعضه يبارك، فإن الصور التفصيلية التى تعقب هذا الإجمال ، سوف تجئ على طريقة (اللف والنشر المرتب» فى البلاغة العربية، تجئ أولا صور الملاعنة التى وردت فى المقطع السابق ثم

تعقبها صور المباركة وحميا الإقبال :

أجيئك
تحملنى صهوات الرؤى المعلمة
بكفى سيفك
أحمله عن ميامين قبلى
مضوا فى هواك وغطوا ثراك
وقاموا مباخر تمسح بالعطر أحزانك المظلمة

ومع أن هذه الحميا سوف تندفق خلال مقطع غير قصير من القصيدة قبل أن تتوقف وتتكسر، فإن هذا الاندفاع سوف يحد منه فى بعض الأحيان « عوائق إرهاصية» تهدأ من قوة التقدم قبل أن ترتطم موجة الاندفاع بالصخرة الأخيرة ، ويتمثل العائق الأول فى الصمت المطبق فى المخاطبة التى دارت حول محورها الصور المختلفة ووجهت لها الإشارات المتنوعة ، لكنها لاذت بالصمت :

وما زلت شاخصة كالشواهد فوق القبور
كوجه الخرائب فى ليلة معتمة

والصمت هنا لايبعث الشعور بالهيبة أو الإجلال ، وإنما يبعث الشعور بنفاد الصبر، وباقتراب الكارثة العدمية التى تومئ إليها « القبور» و«الخرائب» لكن نزعة التفاؤل والإيجاب لا تستسلم وإنما تتقدم :

وأنزل فى المعمعان
أطاعن ثبت الجنان
وظهرى إليك
أمنت فجاءات هذا الزمان
تلبست جلد الأمان
عرفت اختلاط المسالك
بلبلة المدجين
وطعم المرارة فى طعنات الجبان

ولنلاحظ أنه مع ازدياد درجة التوتر تعود القافية المكثفة إلى الظهور فتتكرر قافية النون خمس مرات فى ثمانية أبيات ، وهو غنى أشرنا من قبل إلى أثره على القصيدة ، وإذا كان

الشعور هنا يتقدم نحو الانتساب . . والإيجاب فإن ذلك لايبدو من خلال صور الحركة فقط وإنما من خلال أفعال الشعور أيضا ومعنا منها فى هذا المقطع « أمنت فجاءات هذاالزمان» ، وسوف نرى أن هذا النوع من الأفعال سوف يبدأ فى التراجع مشكلا جزءا من «العوائق» التى أشرنا إليها ، ويلاحظ ذلك فى مفتتح المقطع التالى :

ظننت بأنك فى الروع حضنى

ملاذى وأمنى

وزادى إذا جعت

فلم يعد الأمن إلا « ظنا» ولسوف يتطور هذا النوع بعد أن ينكشف غبار التردد إلى ماهو أقوى من فعل « ظن» وهو فعل « وجد» :

وجدتك راجمة الأنبياء
وقاتلة الشعراء
ومخرسة الألسنة
وأرتد
أين المفر
وأين براءة حلم تقصف
خطو توقف
عمر تجاعيده مبهمة
وأسقط
تتسعين فما لازدرادى
ولحدا عميق القرار
وفخا
ودائرة محكمة

إن الحركة الأخيرة فى الارتداد والسقوط جاءت خاطفة وحاسمة وكادت فى حدتها وثقلها تعادل بين الصمت الطويل للمخاطبة ، والموجات المتتالية من الكلام والحركة للصوت الرئيسى للمتكلم .

على هذا النحو تقدم القصيدة نموذجا فنيا يتعاون فيه تقابل الثوابت والمتغيرات ، وتراكم

الصور، وأفعال الشعور، وأدوات الربط وجودا أو عـدما، ودرجة الموسيقى علوا أو خفوتا، يتعاون فيه كل ذلك فى تقـديم لون من الشعور يمكن أن يلبس مواقـف متعددة، قد تكون الوطن فى بعض لحظات الانتماء، وقد تكون المرأة، وقـد تكون مواقف أخرى مجردة تهيئ لها القصيدة فرصة للتجسـد، لكن معرفة « المقصود» ليست هى جـوهر تحليل القصيدة ، فما أسهل أن يقـال ذلك « المقصود» فى قـالب عادى، فـلا يستحق أكثر من أن يطرح حـوله السؤال « ماذا قال » لكننا فى الشعر نطرح دائما السؤال : « كيف قال ».

إن قصائد الديوان وهى توظف الصورة تستغـل كثيرا من إمكانياتها فهى أحيانا تلجأ إلى التوليد داخـل الصورة وتتبع الجزئيات الدقيقة لخلـق صور جديدة منها، وأحيـانا تجنح إلى إجراء لون مـن الديالوج الداخلى بين أغصـان الصور الجزئية وأحيانا أخـرى تستغل الصورة الاعتراضية لكى تنمـو بها وتدخل معها آفاقا جـديدة تبدو وكأن السياق اللغـوى هو الذى يقود إليها عرضا، ولعل الطريق المتعرج الـذى سلكته قصيدة « لا مفر» التى تفتتح الديوان بين نقطة البدء ونقطة النهاية مر بكثير من ألوان التشكيل الفنى فى الصورة.

هذا أنا
وفى نهاية الطريق أنت
واحة شهية
سحابة سخية تمر
أدمنت ظلها ولا مفر
والآخرون بيننا

إن ديوان الدائرة المحكمـة يؤكد كثيرا من القضـايا المتصلة بتطور القصيـدة الحديثة وهو يؤكدها بطرق غير مباشرة أحيانا من خـلال لغته، وأحيانا من خلال مضامينه وفى كثير من الأحيان من خلال امتزاجهما معا، فـالشعر « تحرك» يهدف إلى التغير ومن اللافت للنظر أن معظم قصائد الـديوان تبدأ بأفعال الحركـة من الشاعر أو إليه أو إلى القصيـدة « الليل وحبة الضوء» مطلعها « تجيئيننى فى الليـل» والدائرة المحكمة مطلعها « أجيئك مزدحما بـالوعود » وقصيدة لأنك الوطن مطلعها « على جناح الصيف يرجعون» وقصيدة « يدوسنا عام جديد» مطلعها « وانتظرناك» فما جئت وقصيدة «الرحلـة اكتملت» مطلعها «نجوس خلال الديار» وقصيدة صـورة مطلعها « تعـالى . . . فهذا زمـان التصنع». وهكـذا تسيطر أفعـال المجئ والذهاب ومايدور فى مجال الحركة على مطالع كثيرة مـن قصائد الديوان ، وهى سيطرة يمتد مداها إلى أبعد من المصادفة اللغوية، ليشف عـن جزء من طبيعة شعر الديوان وهدفه وهو

الحركة الديناميكية الرافضة والمؤثرة والمغيرة والكاشفة لنقاب الدهشة عن كثير مما تألفه العين خارج دائرة الشعر .

وديوان « الدائرة المحكمة» يؤكدكذلك أن الشعر انتهاء ، وهو انتهاء لا ينسلخ فيه الشاعر عن دوائر علاقاته الإنسانية بحجة البعد عن شعر المناسبة .

ولقد كان جوته يقول إننى لم أكتب قصيدة إلا ووراءها مناسبة من لون ما وقد شاعت فى حركة الشعر الجديدة موجة من رد فعل ضد قصيدة المناسبة ، لكن ديوان الدائرة المحكمة يقدم لنا قصائد تدور حول أربع شخصيات من أعلام الحياة الأدبية المعاصرة (طه حسين ـ صلاح عبد الصبور ـ فوزى العنتيل ـ عبد الحميد الحديدى) وهى قصائد تحمل قيمة فنية عالية ، وتطرح قضايا تتصل بجوهر الفن الشعرى وخاصة مرثيتى صلاح عبد الصبور ـ وفوزى العنتيل اللتين تطرحان قالبا محكما للمرثية فى مفهومها الحديث .

وقصائد الانتماء العام فى ديوان « الدائرة المحكمة» وفى مقدمتها الوطنيات تحتل مكانا بارزا وتعبر عن هموم الوطن فى أقنعة مختلفة وقد تمتزج فيها صورة الأسى وبلمحة الغزل نبرة الحزن ، وتذوب فيها الذات الخاصة فى الذات العامة أو يتلاشى الواحد فيها فى الكل وكل ذلك من خلال أدوات الفن الجيدة التى يزدحم بها هذا الديوان .

لقد أشرت فى بداية هذا الحديث إلى أن بعض مواهب فاروق شوشة قد حملت إليه الظلم .

فهل أضيف إلى هذا أيضا أن الحركة النقدية قد أضافت بدورها بعضا آخر حين لم تعط لهذا الشاعر الكبير مايستحقه شعره من المناقشة ولعل جائزة الدولة التى حصل عليها أخيرا ترفع جزءا من هذا الذى أشرنا إليه .

المبحث الخامس

درجات السلم الموسيقى في حركة الشعر الحر

محمد إبراهيم أبو سنة

يعد صدور « الأعمال الشعرية» لمحمد إبراهيم أبو سنة حدثا ذا أهمية خاصة فى تاريخ الشعر العربى المعاصر وعلى نحو خاص فى تاريخ مدرسة الشعر الحر فى مصر، فقد بدأت دواوين هذا الشاعر تتوالى فى الظهور منذ أكثر من عشرين عاما(*) حيث ظهر ديوانه الأول «قلبى وغازلة الثوب الأزرق» سنة ١٩٦٥م ثم ديوان « حديقة الشتاء» سنة ١٩٦٩م ثم «الصراخ فى الآبار القديمة » سنة ١٩٧٣م ثم « أجراس المساء» سنة ١٩٧٥م ثم « تأملات فى المدن الحجرية» سنة ١٩٧٩م وأخيرا « البحر موعدنا » سنة ١٩٨٢م، لكن الشاعر أعاد تجميع الدواوين الستة لكى تظهر فى المجلد الأول من « الأعمال الشعرية» فى نهايات سنة ١٩٨٥م . وقد واكبت الفترة التى ظهر فيها هذا المجلد حركة نشطة لدى كبار الشعراء المصريين لتجميع حصاد ربع القرن الأخير بين غلافى كتاب واحد ، هكذا فعل على سبيل المثال الشاعر فاروق شوشة الذى صدرت أعماله الكاملة عن دار النشر ذاتها وفى العام ذاته، ومن قبله بقليل تجمعت أعمال الراحل آمل دنقل فى ديوان واحد ، وكأن شعراء الموجتين الثانية والثالثة من مدرسة الشعر الحديث فى مصر، والذين بدأ نشاطهم منذ أواخر الخمسينيات وازدهر فى الستينات والسبعينات، بدأ يجمع حصاده فى الثمانينات ويضع ما تفرق منه أمام أعين النقاد والقراء، وذلك يتيح دون شك فوق المتعة المكثفة، إمكانية إلقاء نظرة أكثر شمولا على حركة الشعر الحر، من خلال هذه المجموعات أو واحدة منها .

على أنه يبدو من الضرورى قبل تناول قضية كتلك، التذكير بواحدة من المبادئ الأساسية فى تاريخ الحركات الأدبية ومدى نسبيتها بالقياس إلى التاريخ العام الأدبى الذى تنتمى إليه ، ويتلخص ذلك المبدأ فى أن على الدارس فى لحظة من اللحظات أن ينزع نفسه

(*) كتبت هذه الدراسة . سنة ١٩٨٧ .

من إسار اللحظة المعاصرة ومناخ الحركة من داخلها، ويتصور نفسه خارجها فى محاولة متابعة للخط العام للتطور ، ما كان منه من قبل، وما يمكن أن يحدث من بعد ، قياسا على خطو التطور فى حركات أخرى مماثلة، وفى ضوء هذا المبدأ علينا أن نتذكر أن حركة الشعر الحر فى العالم العربى عمرها الآن نحو أربعين عاما، وهى فترة شديدة القصر بالقياس إلى تاريخ الشعر العربى الذى يتجاوز خمسة عشر قرنا، ومن ثم فإن التجربة لم تبلغ بعد مداها ومن الظلم لها أن يطلب منها أن تبلغ المدى فى هذا الزمن القصير، ومن الظلم للشعر العربى أن يطلب منه أن يسلم بأن هذه الحركة هى نهاية المطاف، وأنها أغلقت الأبواب وراءها، وأصبحت هى الإمكانية الوحيدة للتعبير الشعرى، أو حتى للتعبير الشعرى « الجيد» ، لكن من المنصف أن ينظر إليها على أنها تجربة ، فيها الكثير من جوانب الإيجاب المتمثل فى عناصر التعبير الشعرى اهتدت إليها وأهدتها للشعر العربى، وأصبحت جزءا من سداه ولحمته ، وعناصر أخرى لم تثبت التجربة حتى الآن استجابة الذوق العربى لها وهو متلقى هذا الفن « ومستهلكه» على حد تعبير النقاد الفرنسيين ـ ومن ثم فقد تكون هذه العناصر قابلة للمراجعة، وينبغى أن تكون من الناحية النظرية قابلة للتراجع أيضا، وإذا حاولنا من هذا المنظور أن نستشرف آفاق التطور المحتملة فى حركة الشعر الحر ، فإننا يمكن أن نقول ، إنه يمكن أن يحدث لها ما حدث للموشحات فى بعض فترات « التجديد» فى الشعر العربى، فلا شك أن الذين عاشوا عصر الموشحات من داخله، ظنوا فى بداية التجربة وحمياها أنهم باهتدائهم إلى هذااللون ذى الغنى الموسيقى الخاص قد انتقلوا بالقصيدة العربية إلى مرحلة أكثر تطورا ـ ومن يدرى ـ فربما ظنوا أيضا أن الشعر العربى معهم قد ودع ذلك الشكل التقليدى البسيط دون عودة إليه ، ولكن التجربة تثبت بعد ذلك أن الشكل البسيط للقصيدة يبقى، وأنه فى الوقت ذاته يستفيد من الثراء الذى قدمته له حركة التنوع الموسيقى فى الموشحة، وأن حميا التحمس للون الموسيقى الجديد تهدأ شيئا فشيئا، ولكنها لا تزول وتبقى جزءا من تنوع إيقاعى فى تاريخ هذا الشعر وهذه النتيجة التطورية محتملة أيضا ـ من الناحية النظرية ـ فى حركة الشعر الحر ، فقد ينجلى الغبار بعد نصف قرن من الزمان أو أكثر أو أقل عن جيل لم يولد بعد ، يأخذ من هذه الحركة إيجابياتها وهى كثيرة ويتلافى سلبياتها التى يسفر عنها النقاش، ويخرج بالشعر العربى إلى أفق جديد، أو يعود به إلى الخط الممتد إلى جذوره بعد أن يضيف إليه من لمسات التطور ما تتمخض عنه إبداعات الشعراء الكبار فى حركات التجديد .

هذا المبدأ النقدى حين يتم التذكير به يراد به التنبيه إلى خطورة مبدأ مقابل يشيع غالبا فى حياتنا النقدية، ويحمل عنوانا له مقولة ظاهرها الحق والحيدة ولكنها تخفى فى الواقع خطرا

حقيقيا على الإبداع والنقد معا ، ونعنى بـه ذلك المبدأ الذى ينادى بضرورة النظر إلى الأعمال الأدبية من « داخلها لا من خارجها» وأن يتلمس الناقد قواعده ومبادئه من واقع الفترة التى يدرسها وأن يتنـاسى النزعة « الدوجماطيقيـة» التقليدية ، ولا شك أن هناك جـانبا كبيرا من الصواب فى هذا القول ، ولكنه يطبق فى مراحل استقرار الهيكل العام لجنس أدبى ما، لا فى مراحل التجـربة الأولى سواء كانت تجارب فـردية أو جماعية ، ولا فى مراحـل اهتزاز الشكل وعلى نحو خاص فى الشكل الشعـرى ، والمبالغة فى تطبيق هذا المبدأ قد تجعل النـاقد مطالبا بأن يبرر ما يراه ، وأن يكون تـابعا وأن تكون الحركة التطورية فى مجملها عشوائيـة قد يقودها مبدع نحو اليمين ويجد من يبرر لـه وآخر نحو اليسار ويجد من يبرر له كـذلك ، وفى وسط ذلك يفقد خط التناسق العام فى التطور الأدبى .

بعد هذه المقدمة نعود إلى « الأعمال الشعرية» التى نحن بصدد الحديث عنها والتى تحتل مجلدا يزيد على سبعمائة صفحة من القطع المتوسط ، ويضم داخله ستة دواوين للشاعر كما أشرنا ، وأول ما يـلاحظ من حيث الشكل أن الشـاعر أعاد ترتيـب دواوينه داخل « الأعمال الشعرية» والتـزم فيها الترتيب العكسى تماما ، أى أنه بـدأ بآخر الدواوين « البحر مـوعدنا» الذى صدر سنة ١٩٨٢م ، وانتهى بأولها : « قلبى وغـازلة الثوب الأزرق » والذى ظهر سنة ١٩٦٥م ، لكنه فى الوقت ذاتـه ذيل ديوان البحر موعدنا بمجموعـة من « قصائد من دفتر السنوات القديمة من أوراق الصبا فى حدائق الشعر» وهـى مجموعة تتكون من ثلاث قصائد تعود إلى سنة ١٩٦٠م وحرص الشـاعر على أن يثبت تواريخ كتابـة كل قصيدة أو نشرها فى الديـوان الأول ، واكتفى فى الـدواوين الخمسة التـالية له أن يكتـب تحت عنوان كـل ديوان تاريخ نشره ، وقد أضـاف الشاعر ـ فى مجال الشكل العام ـ تقليدا التـزمه فى خمسة دواوين من الستـة ، وهو كتابة إهـداء فى صدر الديوان وتـذييل هذا الإهـداء بتوقيع الشاعـر ، وهو يهدى ديوانه الأول ـــ حسب الترتيب فى الأعمال الشعريـة ـ إلى مسقط رأسه قـرية « الودى » ويوقع باسمه كاملا « محمد إبراهيم أبـو سنة» ، ويهدى ديوانه الثانى « إلى أبى وأمى» ويوقع « أبو سنـة» وذلك فى ذاته لافـت للنظر. ، فالإنسان عنـدما يخاطب أبـويه يتحدث بـاسمه الأول وليس باسـم الأسرة فهـو عندهما « محمد » وليس « أبو سنة» وتتكـرر نفس الملاحظة فى الديوان الثالـث « إليها» والتوقيع « أبو سنة» أما الديوان الرابع فهو « إلى أبى » دون توقيع (؟) والخامس دون إهـداء ولا توقيع ، والسادس والأخير وهـو فى نفس الوقـت الأول فى الظهور الزمنى يهدى إلى الذين يصرون على إنقاذ الحب ومجد الإنسـان ، وفى هذه المرة يوجه الشاعر فى صفحة الإهداء قصيدة قصيرة من أربعة أبيات :

إن يكن غيرى يعزف فى ناى ذهب
فاغتفر يا شعب أن أعزف فى ناى حطب
ليس فى الآلة حس إن فى الروح الطرب
أنا ما جئت أغنى إنما جئت محب

وهذه الأبيات الأربعة تسير على تفعيلة مجزوء الرمل « فاعلاتن أربع مرات فى البيت» لكن البيت الأول منها مضطرب موسيقيا ، وهو يحتاج لكى يستقيم وزنه أن يضاف إليه «سبب خفيف » قبل الفعل « يعزف» . .

وعندما يجد القارئ أن أول بيت فى أول ديوان توجه إليه هذه الملاحظة العروضية فإن ذلك قد يكون مؤشرا لتجاوزات أخرى فى صلب الديوان والدواوين التالية له ، وهو ما سنعود إليه بالحديث المفصل .

لكن قد يكون علينا أن نناقش أولا ظاهرة الموسيقى فى الشعر الحديث كما تتمثل فى هذا الديوان من خلال المنظور الذى أشرت إليه آنفا ، والمتمثل فى النظر إلى التجربة من خارجها ، ما الذى تمثله دائرة التنوع والتعدد الموسيقى فى الشعر الحر ، إذا قيست بدوائر التنوع الممكنة فى الشكل التقليدى؟ إن من تكرار القول هنا الإشارة إلى ما أكد عليه كثير من الباحثين فى موسيقى الشعر من أنه لاينبغى أن نخدع بالرقم (١٦) فنحسب أن إمكانيات التنوع الواردة فى أبحر الخليل هى ستة عشر فحسب ، بل إنه داخل البحر الواحد تتنوع الامكانيات الموسيقية حتى ليبدو أننا أمام لونين من الإيقاع الموسيقى مختلفين تماما ، مع أنهما ينتميان إلى بحر واحد ، ويكفى هنا الإشارة إلى ما يوجد بين البسيط : (مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن) ومخلع البسيط (مستفعلن فاعلن فعولن) أو بين الكامل فى صورته التامة وصورته المجزوءة والصورة التى يسميها العروضيون بالأحذ المضمر والتى تتحول فيها متفاعلن إلى « متفا» أو إلى فاعل » ويمكن أن تزيد هذه التوقيعات المتعددة بالصور الممكنة فى الموسيقى الشعرية التقليدية عن مائة صورة .

وفى مقابل ذلك نجد أن مجموعة شعرية تضم ستة دواوين لشاعر متميز مثل محمد إبراهيم أبو سنة ، لا تزيد الإيقاعات السائدة فيها عن أربعة إيقاعات هى : إيقاع الكامل « متفاعلن» وهو يمثل الحجم الأكبر من الديوان نحو ٥١٪ من القصائد وهو كثيرا ما يتداخل مع تفعيلة الرجز « مستفعلن» التى يمكن أن تكون متفاعلن بسكون الحرف الثانى ، ويأتى بعد هذا تفعيله المتدارك وتمثل حوالى ٢٦٪ سواء فى صورتها التامة «فاعلن»

أو فى صورة الخبب « فعلن» ثم تفعيلة المتقارب « فعولن» أو « فعول » وتمثل ١٢٪ وأخيرا تفعيلة الرمل «فاعلاتن» وتحتل ٦٪ من حجم الديوان و إلى جانب هذه الإيقاعات الأربعة السائدة ، يوجد إيقاع الهزج « مفاعيلن» فى واحدة من قصائد الديوان .

هذه التفاعيل تبنى فى الديوان على نظام « الشعر الحر » أى وفقا لتنوع العدد فى كل شطر شعرى ، فيما عدا استثناءات قليلة ، كان يقترب منها الشاعر من النظام الخليلى ، الملتزم بوحدة عدد التفعيلات فى كل بيت ، ومع ذلك فقد كان الشاعر يكسر هذا النظام متعمدا فيما يبدو ، ويظهر ذلك واضحا فى قصيدة تحمل عنوان « رباعيات» حيث يستهلها الشاعر على هذا النحو :

قلبــى يــرفــرف فى غمامــة	قمــر ينــوح على حمامــة
ألقتــه بين شبــاكهــا	ومضــت ولم تترك عــلامــة
ريــح على قمــم الجبــال	تشكــو إلى شمــس الــزوال
سفــرا تطــاول ثــم طــال	مــن أجــل وعــد لا ينــال
هــذى المدينــة لا تلــد	عــانقتهــا (قبلتهــا) لم تتقــد
نــاديتهــا وإلى متــى	تبقين بــاردة الجســد

فالذى يقرأ هذه الرباعيات الثلاث يجد أنها جميعا تلتزم مجزوء الكامل بمعنى أن كل شطرة تتكون من « متفاعلن» مرتين ، فيما عدا الشطرة الثانية من الرباعية الأخيرة (عانقتها قبلتها لم تتقد) فهى تتكون من « متفاعلن» ثلاث مرات ، وكان من الممكن للشاعر أن يحذف كلمة « عانقتها» أو «قبلتها» فيستقيم له النظام الموسيقى ، دون أن يفقد المعنى شيئا . وتتكرر نفس الظاهرة فى قصيدة « الطريق إلى المستحيل» فى الديوان ، مما يدل على أن الشاعر يريد أن ينسلخ من الشكل الخليلى فى صورته التقليدية .

ومن الظواهر المتعلقة بالموسيقى فى هذه المجموعة ظاهرة الخلط بين البحور فى قصيدة واحدة ، وهى ظاهرة قد تختلف قليلا عما يسمى « المزج بين البحور» حيث يبدو فى فكرة «المزج» التخطيط المحكم الذى يقف وراء الانتقال من بحر إلى بحر آخر ، ثم العودة إلى البحر الأول ، وهكذا ، ومن أمثلة فكرة « الخلط » فى المجموعة التى معنا ، قصيدة « زمان التعاسة» :

حالك كالمرايا التى تعكس
الليل ، حالك يا زمان التعاسة

كل ما فيك كاذب ومهين
وممعن فى الخساسة
نبوءاتنا والأمانى المداسة
سكنتك الأحزان وازدهر اليأس
وماتت على يديك القداسة
ما الذى يرتجى وأنت خئون
موحش سادر فى الشراسة

فعلى حين يبدأ البيت الأول بتفعيلة المتدارك « فاعلن » فإن الشطر الثالث « كل ما فيك كاذب ومهين» يمثل شطرا من بحر الخفيف « فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن » وكذلك الشطر الخامس والسادس والسابع والثامن على حين يعود التاسع إلى المتدارك ، ويستمر هذا التردد على مدار القصيدة .

على أن الأمر أحيانا يتعدى ظاهرة « الخلط» بين التفعيلات المعروفة ، إلى ظاهرة «الخروج» على هذه التفعيلات ، والخلط بين إيقاعى الشعر والنثر، وهى ظاهرة تكررت فى مواقع متعددة ، وإن لم تأخذ شكل الشيوع ، وسأكتفى هنا بالإشارة إلى مثال واحد من مطلع قصيدة «النهر وملائكة الأحزان» :

لست سطحا من الموج لا ولا أنت فضة
إنما أنت مهجة الأرض سالت ، ودهر
من الهناءات والتعاسة والشوق
لحن من العشق يرحل فى الحلم
حتى تموت المسافة

فمع أن تفعيلة المتدارك « فاعلن » هى التى تشكل صلب هذه الأبيات فإن الخروج عليها«إلى غير تفعيلة أخرى » أمر واضح ، وخاصة فى السطرين الثانى والثالث ، وتتكرر نفس الظاهرة فى قصائد أخرى فى الديوان مثل قصيدة «رؤية نيويورك» و«أسافر فى القلب» ومن اللافت للنظر أن القصائد التى وجدت فيها هذه الظاهرة ، ينتمى الكثير منها إلى المرحلة الأخيرة فى إنتاج الشاعر ، وهى مرحلة يفترض فيها سيطرة الشاعر التامة على أدواته وتلافيه للهنات التى يمكن تصور ورودها فى المراحل الأولى .

وإذا كانت درجات السلم الموسيقى قد قادتنا حتى الآن من مرحلة «التفعيلات المستقلة

المحدودة» إلى مـرحلة « التفعيلات المتـداخلة» ثم إلى مرحلـة « التفعيلات المضطربـة» التى يتداخل فيها الإيقاع الشعرى مع الإيقاع النثرى، فإن من الطبيعى أن تقودنا إلى مرحلة تالية هى مرحلة « الإيقاع النثرى الخالص » .

وتتمثل هذه المرحلـة فى الديوان على نحو خـاص فى قصيدة من « قصائد النثـر » تحمل عنوان « رسـالة إلى الحزن» ، ولا يلتزم فيهـا الشاعـر الوزن الشعرى على الإطـلاق . والطبعة التى بين يدى خـالية من الإشارة إلى أن القصيدة مـن «قصائد النثر مع أن القصيـدة عندما نشرت من قبل فى ديوان تأملات فى المدن الحجرية حملت هذا التنويه ، ويفترض أن سقوطها هنا خطأ غير مقصود . لكننـا عندما نصل إلى هذا اللون من الكتابـة : « قصيدة النثر» علينا أن نتساءل من جديد ، عن مدى شرعية وضعه فى ديوان من الشعر، وعن مدى شرعية حمله لكلمة « قصيدة» فى عنـوانه ، وهذا التساؤل المزدوج ينبغى أن نفرق بينـه وبين التساؤل عن مدى «جمال» أو « أدبية» هذا اللـون ، فذلك تساؤل معيارى ، ليس محلـه هنا فى هذا اللون من الدراسة الوصفية .

ما الـذى يجعل المقطوعـة التالية الموجهة إلى الحزن « قصيـدة نثر» وليست « نثـرا » فقط؟ عندما يقول الشاعر مثلا :

١ ـ أيتها القطيفة الناعمة السوداء .
٢ ـ إنك ماهر حقا فى التسلل إلى جميع المنافذ .
٣ ـ فأنت تجيد تسلق السفن التى تمخر عباب أعالى البحار.
٤ ـ وتجيد ركوب الطائرات والسيارات العامة والخاصة .
٥ ـ ودخول المطاعم ومحلات البقالة والمكاتب الحكومية .
٦ ـ والمنازل والحدائق ومجالس السفراء والخفراء وقلوب .
٧ ـ النساء المراوغات ، والنساء العفيفات اللواتى .
٨ ـ لا يخالفن ضميرهن أبدا . . . ومع ذلك فإنك .
٩ ـ تقبل دائما من الهواء متعللا فى أول الأمر .
١٠ ـ بأنك سوف تسمعنا لحنا شجيا ناعما .
١١ ـ وسرعان ما تنفجر كالقنبلة .

لنسجل أولا أن دخـول هذا اللـون من الكتـابة داخـل ديوان شعـر عربـى أمر حـديث نسبيا ، أى أنه لم يكن متصورا أن يدخل الشريف الرضى إحدى خطبه فى ثنايا قصائده (مع

أن العكس كان واردا) ولا أن يمزج ابـن العميد بين شعره ونثره ، وحتى عندمـا ترك حليل مطران فى بـداية القـرن ، قصيدة نثـرية فى رثـاء اليازجـى تتسلل على استحيـاء بين قصائده الشعرية ، لم يكرر التجربـة وأفرد لنثرياتة الرفيعة المستوى كتبا أخـرى ، لكن الظاهرة بدأت فى الشيوع مع مدرسة الشعر الحر ، وكأنها نتيجة من نتائج التحرك على درجات السلم التى أشرنا إليها آنفا (محدوديـة التفعيلات ـ تداخل التفعيلات ـ اضطـراب التفعيلات وتداخل المستويين الشعرى والنثرى ـ قصيدة النثر) .

ولنعد إلى التساؤل من جـديد حول شرعية دخول هذا « النثر» إلى ديـوان شعر وحمله اسم «قصيدة» النثر ما العنصر المشترك بين هذا « النثر» وبين الشعر ؟

ليس هذا العنصر هو « الإيقاع» مع أن هذا اللون من الكلام يوجد فيه إيقاع دون شك ، ولكنه إيقاع مختلـف فى طبيعته عن الإيقاع الشعـرى ، فطبيعة الإيقاع الشعرى أنـه «إيقاع دائرى» وطبيعة الإيقاع النثرى أنـه «إيقاع امتدادى » بمعنى أننا لو تصـورنا الإيقاع الشعرى بادئا مـن نقطة معينـة فإنـه يعود إليها بعـد دورة قصيرة ويكرر الـدورة بعينها بعـدد تكراره للتفعيلات المفردة أو المزدوجة التى يستخدمها ، وهكذا يجد الذى يركب بحر الرمل مثلا أنه دائما يتيح الكلام على فاعلاتن فاعلاتن أى أنه من ناحية الإيقاع أمام (سبب خفيف + وتد مجموع + سبب خفيف) وأنـه يعود إلى هذه الدورة من جديد كلما انتهـى منها . أما الإيقاع النثرى فهو كما قلـت إيقاع امتدادى بمعنى أنه لا يلتـزم بالعودة نغميا إلى النقطـة التى يبدأ منها ، وإنما هـو ينطلق على خط ممتـد مكررا من المقاطـع القصيرة والطويلة ومـن الأسباب والأوتاد مـا تمليه اعتبارات أخـرى غير اعتبارات « الـدورة النغمية» التى يلتـزم بها الشعر ، وعلى ضوء هذا المبدأ فإن الفحص المتأنى لهذا المقطع ولغيره من مقاطع « قصائد النثر» بصفة عامة ينتهى بنا إلى أن قصيدة « النثر» تنتمى نغميا إلى مجال « النثر» لا إلى مجال الشعر .

قد يظن أن فكرة الخيال والصورة هى القاسـم المشترك الذى يربط « قصيدة النثر» هنا ، بقصيـدة الشعـر، وهو نفس العنصر الـذى يجعلنـا فى مجال التحليل الشعـرى نفـرق بين «الشعر» و«النظـم» اللذيـن يشتركان فى نظام مـوسيقى واحـد ، ولكنهما يفترقان مـن حيث القيمة الجمالية من خلال عنصر الخيال والصورة ، ومع أن ذلك التصور لايخلو من صحة ، فإنـه ليس السبب الرئيسـى فى نسبة هذا اللون مـن النثر إلى عالم الشعر ولا فى إطـلاق اسم القصيدة عليـه ، ولو كان هذا هـو السبب الرئيسى لـدخلت كثير من كتابـات طه حسين ومصطفى صادق الـرافعى وأحمد حسن الزيات وجبران خليـل جبران ، إلى عالم القصائد ، بل ولأمكـن أن نصعد إلى الجاحظ وابـن المقفع فنـدرجهما فى عداد الشعراء مـع أنهما لم يزعما ذلك ولعلهما لم يريداه .

لم يبق إلا عنصر واحد هو الذى يسوغ دخول هذا اللـون إلى عالم الشعر ـ من وجهة نظر كاتبيه ـ وهو عنصر « طريقة التسجيل الكتابى » . . كيف ؟ تفترق طريقة كتابة الشعر عن النثر، فى أن النثـر يخضع نظـام التسجيل الكتـابى لمتطلبـات المعنى ، فنحـن نبدأ الجملـة الجديدة من أول سطـر ، ونستمر فى الكتابة فنمـلأ فراغ السطر من أولـه إلى آخره مستغلين الفواصل والنقط للتعبير عن الحدود الصغرى والكبرى للجملة ، ولكننا لا نستأنف العودة إلى أول السطر إلا إذا انتهينا من المتطلبات المعنوية والتركيبيـة للجملة التى بين أيدينا . لكن الشعر له طريقة مختلفة فى الكتابة وتحديد أول السطر وآخره ، وهى طريقة تخضع ـ بالدرجة الأولى ـــ لمتطلبـات النغـم لا لمتطلبـات المعنـى ، وقـد يلتقـى المتطلبـان معـا ، لكنهما قـد يتصارعـان وفى هذه الحالة تخضع الكتـابة الشعرية للنغـم الذى يحدد بداية البيـت ووسطه وخاتمتـه ، بصرف النظر عن المتطلبـات الداخلية للتركيـب ، ولننظر مثلا إلى مطلـع معلقة امرئ القيس :

قفانبـك من ذكرى حبيـب ومـنزل بسقط اللـــوى بيـن الـدخول فحـومل
فتوضـح فالمقـراة لم يعف رسمهـا لمـا نسجتـــه مـن جنـوب وشمـــأل

فالواقـع أننا عندما نكتبهـا بهذه الطريقة التى تعـودنا عليها ، دون اللجوء إلى الفـواصل ومع ترك فراغ بين السطرين الأول والثانى ، وإنهاء السطر الأول بعد كلمة حومل واستئناف السطر الثـانى مع كلمـة « فتوضح » ، عندمـا نفعل هذا فنحـن نراعى متطلبـات النغم لا متطلبات المعنى ، وإلا فإننـا لو كتبنا هذه الأبيات على طريقـة النثر، لأصبحت على النحو التالى :

قفانبك / من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى / بين الـدخول فحومل فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها / لما نسجته من جنوب وشمال .

لقد فـرض هذا القانـون على الشعر القديـم أن يكتب على شطرتين ، وأن يترك فـراغا فى وسـط السطر يمتـد على نحـو متـواز من أعلى الصفحـة إلى أسفلهـا ، وظـل هذا الشكـل للصفحة المكتـوبة سمة خاصـة بالشعر، تعرف مـن خلالها الصفحة أنها صفحة شعـر من النظرة الأولى حتى قبـل أن تقرأ ، ولا تشاركها فى هذا « الشرف » صفحـة النثر، وأقول الآن ، لعل هـذا هو الذى أبعد فكـرة « قصيدة النثر» عند القـدماء ، فقد كان على أيـة قصيدة أن تكتب على شطرتين بينهما فراغ (وحتى عند غياب الفـراغ كان يشار إليه بحرف م دلالة على كلمة مشترك التى تدل على اشتراك الشطرتين فى كلمة واحـدة) وهذا الشكل الكتابى نفسه كان يستلـزم التوازن النغمـى بين الشطرتين ، وهـو مالم يتوفـر للنثر ولم يـدعه ، فظـل النثر الجميل الخيالى المصور نثرا فنيا وكفى ولم يدع أنه قصيدة .

مع ظهور الشعر الحر ، حل فى طريقة « التسجيل الكتابى» مبدأ السطر مكان الشطر واختفى فراغ الوسط الذى كان يفصل الشطرتين ويميز صورة الكتابة الشعرية فضاقت الهوة قليلا بين الشكل الشعرى والشكل النثرى فى الكتابة ، ولكن ظل القانون الذى يحكم بداية السطر ونهايته مختلفا فى الحالتين ، فهو قانون « النغم» فى الشعر وقانون « المعنى» فى النثر، وحين يحدث الصراع بين القانون يفصل الشعر قانون « النغم» فينهى السطر قبل أن ينتهى المعنى ، بل وقبل أن تتم أجزاء الجملة النحوية الرئيسية وهو ما يعرفه علماء العروض بظاهرة « التضمين» ، وهى ظاهرة تشيع فى الشعر القديم والحديث ، فعندما يقول أبو سنة فى هذه المجموعة :

لو كان ساعدى الذى

يمزقونه يمتد غصن سنديانه إذن أظلهم

لو أن قلبى الذى تدوسه خيولهم

شراع مركب أقلهم وجاز نهرهم

لو كان عمرى السجين غنوة

توهجت فى يوم عيدهم

قاتلت طيلة الشتاء فى جبالهم

عندما نقرأ هذا المقطع لابد أن نحس بأن نهاية السطر ليست لها علاقة بنهاية المعنى غالبا ، فالسطر الأول ينتهى باسم الموصول « الذى» وصلة الموصول فى السطر الثانى ، والسطر الثالث توجد فيه « أن » واسمها ، ويوجد خبرها فى السطر الرابع . . . وهكذا .

هذا النوع من الكتابة ، ظل يميز « طريقة التسجيل الكتابى» للشعر الحديث ويميزها عن طريقة تسجيل النثر بدرجاته المختلفة ، التى تلتزم فى تحديد بدايات الأسطر ونهاياتها بالمعنى لا بالنغم ، ومن هذا الباب دخلت « قصيدة النثر» ـ فيما أعتقد ـ إلى مجال الشعر وأخذت مصطلحه ، فهى تكتب أسطرها على طريقة مشابهة للشعر ، بمعنى أنها تنهى السطر قبل تمام المعنى ، وتترك بقية التركيب معلقا فى البيت التالى على طريقة « التضمين» العروضى ولو أننا أعدنا قراءة نموذج « قصيدة النثر» الذى أوردناه فى مفتتح هذه الفقرة الخاصة ، ولاحظنا على نحو خاص طريقة كتابة الأسطر ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، لعرفنا أن « تشعير» هذه الأسطر جاء من اللجوء إلى هذا القانون دون سواه متمثلا فى الفصل بين المضاف والمضاف إليه فى ٦ ، ٧ ، وبين الصلة والموصول فى ٧ ، ٨، وبين اسم إن وخبرها فى ٩,٨ ، وبين الجار والمجرور ومتعلقه فى ٩ ، ١٠ ، هذا هو القانون الذى يفسر إطلاق

اسم «قصيدة» على قطعة نثرية، وإدخالها فى مطبوعات ديوان، وهى واحدة من ظواهر الشعر الحديث، سهل لها كما قلت، زوال الشطر وهيمنة السطر، لكن هل يكفى هذا التشابه لشرعية إعطاء مصطلح «قصيدة» لهذا اللون من الإنتاج؟ .

إننى أعتقد أن كلمة « قصيدة» التى احتلت فى الوجدان العربى مكانة خاصة منذ أن تحدث الناس عن « أول من قصد القصائد» فى البدايات البعيدة الغائمة للعصر الجاهلى، هذه الكلمة التى التصقت بمعنى « القصد » إلى لون محدد من التعبير، أكثر خصوصية حتى من كلمة « الشعر» ذاتها، هذه الكلمة ينبغى أن يظل مجالها القول الموزون الذى يسير على النمط الدائرى للنغم الذى أشرنا إليه ، سواء كان هذا النمط تابعا لنظام « البيت» أو لنظام «التفعيلة» وأعيد هنا تأكيد ما سبق أن أشرت إليه من أن هذا ليس حكما جماليا، وإنما هو توصيف فقط، يوضع بمقتضاه هذا اللون الجميل من النثر الفنى فى دائرة موازية لدائرة الشعر ولكنها ليست داخلة فى إطارها.

هل يمكن أن نستعيد الآن الخطوط الكبرى التى تحركت فى إطارها هذه الرحلة على درجات السلم الموسيقى فى حركة الشعر الحر، والنتائج التى يمكن أن تنتهى إليها.

* إن علينا من وقت لآخر أن ننزع أنفسنا من أسار اللحظة الداخلية لحركة فنية معينة، وأن نقف خارجها لكى نلقى نظرة عامة عليها بالقياس إلى التاريخ الأدبى العام.

* إننا يمكن أن نستعين فى ذلك بعينة ممثلة، ومجموعة شعرية تضم ستة دواوين لشاعر بارز من شعراء الحركة على مدى ربع قرن كافية من الناحية المنهجية لتمثيل هذه العينة.

* إن الدراسة الموسيقية لهذه المجموعة فى إطار حركة موسيقى الشعر العربى تنتهى إلى مجموعة من الملاحظات، تتمثل فى ضيق دائرة التنوع الموسيقى وتداخل وحداته، ووقوعها فى الاضطراب أحيانا، ثم انعدام الهوة بين مجال الموسيقى فى الشعر ـ ومجال الموسيقى فى النثر متمثلا فى قصيدة النثر .

ويزيد من ذلك الإحساس ، بنثرية الشعر الحديث، التطور السلبى الذى حدث فى القافية لدى كثير من الشعراء العرب المعاصرين، حين انتقلت القافية على أيديهم، إلى تكنيك مهمل، انطلاقا من فهم خاطىء، بضآلة دورها فى البناء الشعرى، وهذا التطور مناف فى طبيعته حتى للتطور الذى حدث للقصيدة الأوربية المعاصرة، ومتعارض مع الطبيعة « المسموعة» للقصيدة العربية على امتداد تاريخها، وهو مسئول إلى حد بعيد عن توسيع الهوة بين الشعر وسامعيه.

هل يمكن أن تشد هذه الظواهر الخطرة أبصار الشعراء، إلى مزيد من الوعى بطبيعة الأداة الشعرية فى أيديهم، وضرورة محاولة توسيع دائرتها وشد أوتارها من حين إلى حين؟ إننى أعتقد أن محاولة كتابة الشاعر «الحديث» من وقت لآخر لقصيدة تقليدية، وتجربته السباحة فى البحور الصعبة، فى الطويل والمديد والسريع والمنسرح وغيرها، نهجٌ من شأنه أن ينوع النغم قليلا عنده، وأن يجودا أداة الصنعة فى يديه وأن يجعل حركة تحرره وثورته تنتمى إلى دائرة تحرر القادرين، وثورة المتمكنين، وأن يجعلا أيضا حركة الشعر الحديث، تتوقف عن الهبوط درجات أكثر نحو دائرة النثرية .

بقى أن أقول إنه ليس من الإنصاف أن نتوقف أمام مجموعة رائدة مثل مجموعة أبو سنة ، من الزوايا الشكلية فحسب، وإنما علينا أن نتلمس كثيرا من جوانب الإيجابيات فى تكنيك البناء الفنى لديه .

وديوان محمد إبراهيم أبو سنة ، من هذه الناحية، تغرى كثير من قصائده قارئها النقدى بالتناول ، بل إنها فى أحيان كثيرة تشغله عن نفسها وعنه فإذا هو أسير إيقاعها الفنى ، تلفه القصيدة داخلها وعليه أن يبذل محاولة للتخلص من إشعاعها القوى والنظر إليها من بعيد، وتلك واحدة من صعوبات تعامل النقاد مع الأعمال الفنية الجيدة غالبا .

وجزء مما يشد القارئ العصرى إلى شعر هذه المجموعة أنه يجد بعضا من ذاته فيها، وهو قد يجد نفسه فى صورة مباشرة فى التعبير الفنى عن حدث سياسى أو فنى مر بجيله وعاش مشاعره ثم يجد أصداءه الفنية فى الديوان وأسماء أبطاله على صفحاته : صلاح عبد الصبور، عبد المنعم رياض ، جمال عبد الناصر، جاجارين ، فيدل كاسترو ، شهداء الجزائر، شادية أبو غزالة، أنور المعداوى (١) . وهى صور تصاغ غالبا مصفاة من عناصرها القابلة للزوال ، موشحة بعناصر البقاء، منصهرة فى بوتقة الشعر :

رياض مات
تحطمت نوافذ البيوت
تساندت وانهارت الأشجار فى الطرق
وأقبل المطر

---

(١) انظر صفحات: ٧٩ ، ٤٢١د ٤٢٥ ، ٤٤٣ ، ٤٨١ ، ٥٨٢ ، ٦١٤ ، ٦١٧ ، من الأعمال الشعرية الكاملة لمحمد إبراهيم أبو سنة، المجلد الأول ـ مكتبة مدبولى القاهرة ـ ١٩٨٥ .

معطرا يفيض فى العيون
رياض مات
رأيت مصر ترتدى الحداد
تنوح فى الميدان
حمامها يفارق الأبراج
يموت ظامئا على المياه

إن الإفلات مـن الخطابيـة والمباشرة سمة بـارزة يتشكل المقطـع من خـلالها ، والاكتفاء بالـرصد للمشـاهدالخارجية المنتقـاة ، ووضع بعضها إلى جـوار البعض دون تعليـق ، يجسد مشهـدا متجددا ، ويلمـس شعورا حيـا يربـط بين الشعر والعصر، وليـس هذا المقطـع إلا نموذجا لمقاطع كثيرة تتردد على امتداد صفحات الديوان .

لكن قارئ الـديوان العصرى أيضا يجد نفسه فى صـورة غير مباشرة أو غير محددة فى كثير من المواقف التى يرسمها له واحد من « فتيـان العصر» يتحرك على أماكن يعرفها فى العريش وقنا ، وقرية الودى ، ونيويورك[1] ، أو أماكن يتخيلها ويألفهـا أو مواقف يمكن أن يقترب القارئ منها أو تقترب منه ، دون أن يجد نفسه على حافة التجريد التى عودته عليها كثير من قصائد الشعر الحديث :

لا تبعدنى عنك
كيف أصدق أنا كنا منفصلين
هل كنا يوما جسدين
أم نحن خلقنا منذ البدء
جسدا واحد
لا أذكر هذا الزمن الموغل فى البعد
عيناك شراعان على نهر الحب
وسريرك نهر وحديقة
وحمام أزغب يلهو فوق العشب[2]

---

(١) انظر صفحات ٧٣ ، ٩١ ، ١١٣ ، ٦٣١ .
(٢) السابق : ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

إن هذا الاقتراب من المتلقى مع المحافظة على شرائط الفن الجيد يتيح للشاعر أحيانا أن يلبس مسوح حكماء العصر، وأن يواجه قارئه فى نبرة فجائية وكأنما انشق عنه جدار ـ ليضعه دون أى مقدمات ـ اعتمادا على الألفة التى بينهما ـ فى جوهر المشكلة ، وليلمس بيده مباشرة موطن الجرح وكل ذلك دون أن يخاطر بالوقوع فى المباشرة أو الخطابية :

الزمان اختلف
فالبرىء انتهى واللبيب احترف
لم يعد ينقذ الآن من (شبح) الموت
أن تلزم المنتصف
لم يعد ينفع الآن أن تعتكف
والخيول التى كان وقع حوافرها
يصنع الحلم، تسقط فى المنعطف
والحمام الذى كان يهدل
فوق غصون الطفولة
أصبح لا يأتلف
والبلاد التى كنت تهوى منازلها
كل هذى البلاد رقاب وسيف
طاش بعد العناء الهدف
آن أن تعترف
الزمان اختلف(١)

إن غنى القافية يحمل قدرا كبيرا من سر جودة المقطع ، وكما أشرنا من قبل ، فإن خفوت القافية فى بعض قصائد « أبو سنة» وفى القصيدة الحديثة بصفة عامة يعد مسئولا عن جانب كبير من الجفوة التى حدثت بين القصيدة الحديثة والقارئ العربى الـذى تعودت أذناه منذ قرون على أن يجد فى القصيدة ضربا من النغم قمته القافية ، وتعود أن يسمى الشاعر المقتدر « أمير القـوافى» ويعود قـدر من سر هذه الجودة إلى الألفـة التـى يخلعها استخـدام ضمير المخاطب المفرد والـذى يجعل الحديث وسطا بين النجوى الداخليـة والبوح والنصيحة وإلى

---

(١) السابق ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

إحكام الصورة فى الموضع الذى اختار الشاعر أن يضعها فيه فى منتصف المقطع، حيث تجىء صورتان متقابلتان عن الخيول والحمام بما بينهما من عناصر التكامل فى سرعة الانطلاق وبما بين رمزيهما من التعارض بين الحرب والسلام أو بين عنفوان الرجولة وبراءة الطفولة.

على أن الصور فى بعض صفحات الديوان تند عن ذلك الإحكام فى العلاقة بين جزئياتها، ويبدو كما لو أن « التداعى» يحل محل « التماسك» فى العلاقة بين الصور المتتالية، وربما كانت قصيدة « قلبى يفر بلا اتجاه» واحدة من القصائد التى تمثل بعض صورها هذا الاتجاه[1] :

شفتاك فاكهتان من عسل ونار
وكواكب بعثت من الزمن القديم
من السديم
ترف فى أفق النضار
وحشيتان كموجتين من السعار
تلقى بما يبقى من القلب الوجيع
إلى مرافئ الانتحار
تلقى به دهرا من الأمل المثلج فى الضلوع
وفى خليج الذكريات
شفتاك طالعتان فى نهر الربيع
موجا من الورد المرفرف
فى صفاء الذاكرة
يهب البرارى الاخضرار
غرب النهار
فى أفق عينيك . . المسافة
بين قلبى والنجوم
قصرت وطال الشوق
مات الانتظار
حلم يطل من الليالى المظلمات

---

(١) السابق : ص ٥٣ .

إلى السفوح الهابطات

لقد بدأت القصيدة بصورة جيدة ألقت بذور عنصرين : العسل والنار ثم تركتهما دون أن تطورهما أو تطور أحدهما ، وإنما قفزت منهما إلى الكواكب والسديم ، وجاءت الصورة التالية « وحشيتان كموجتين من السعار فكانت بداية لموجة التداعى ، ويمكن أن نتلمس المفردات التى قاد إليها « الموج» فى الصور التى تلته ـ « المرافئ ـ الثلج ـ الخليج ـ نهر الربيع ـ موج الورد » لكى نحس أن الكلمات مترابطة فيما بينها . فى الوقت الذى لاتنبع فيه صورها من نبع واحد ، ومن ثم تبتعد شيئا فشيئا عن نقطة البداية ولا تذكر بها إلا على نحو خافت أو متكلف ، وكأن الصور أغصان أشجار متباعدة تترابط فيما بينها من أطرافها لكنها لا تنتمى جميعا إلى جذر واحد ، ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة فى كثير من صور القصيدة نفسها ، حتى إنها لتفر دون اتجاه كما يقول عنوان القصيدة ، ولا شك أن ذلك « التداعى» فى بناء الصور يخلع جانبا من الغموض على القصيدة وهى ظاهرة تشيع فى القصيدة الحديثة ، وتنفلت بسببها الخيوط من يدى الشاعر فيجئ النسيج مهلهلا وينقطع الاتصال بينه وبين المتلقى .

فى المرات التى تنضج فيها القصيدة فى نفس الشاعر ـ وهى مرات كثيرة ــ يجئ البناء الفنى متسقا يؤازر بعضه بعضا ، وتبدو خلاياه من خلال المجهر متكاملة ، تتراسل فيها عناصر السلب وعناصر الإيجاب ، ويؤدى التجسيد والتجريد هدفا مشتركا ، وتبدو العناصر اللغوية على مستوى الأداة والكلمة والجملة وكأنها لبنات تسد كل منها ثغرة قدت على قدرها فى بناء كبير، ولا يستطيع القارئ أن يفلت من أسر قصيدة محكمة تمزج الحب بالوطن ويتحقق فيها قدر كبير من سمات القصيدة الجيدة وتحمل عنوان : «تباريح عاشق قديم[1]» .

تنوح البلابل فى القلب

أعرف ذنبى

ولا أطلب الآن غفران ذنب جنيت

على هذا النحو الهادىء تفتتح القصيدة بنغمة « اعتراف» وتسليم يتشكل فى ثلاثة أبيات تضم صورتين متجاورتين نوح البلابل ومعرفة الذنب دون أن يربط بينهما أى رابط من

(١) الأعمال الكاملة . ص : ٣٥ .

الروابط التقليـدية فى البلاغة سواء مـا يرد فى علم البيان من روابـط الاستعارة والتشبيه أو فى علم المعانى من روابط الفصل والوصل ولكنهما مع ذلك يعتمدان على التجاور لكى يشكلا معا الجواب والقـرار، الصوت والصدى، وإذا أخذنـا فى الاعتبار الصورةالثـانية (الاعتراف بالذنـب) والتى سوف تتطور على مدار القصيدة، فـإننا نراها قد تشكلت مـن جملة إيجابية وأخرى سلبيـة أى تعادل فيهـا طرفا السلـب والإيجاب، وتلك ملاحظـة ـ على بسـاطتها ـ سوف تتطور معنـا على امتداد القصيدة، بعد أن يتـلاحم فيها البطل الـذى يبدو فى المفتتح ساكنا لا يتحرك ويبدو حديثه أقرب إلى المونولوج لا يرتبط بمخاطب بعينه، بعد أن يتلاحم البطل مع « البطلة» سوف تتشابك خيوط الصراع وتبدو أهمية السلب والإيجاب فى إحداث التوازن.

فها أنت تنتخبين لزينة بيتك غيرى
فأمضى تنازعنى الريح والليل سرى
وأكتم وجد المحبين أهرب
بين حصار الظلال
وبين يديك فؤادى تصوغين منه الفكاهة
للعابرين

إن حركة القصيدة سوف تبدأ من هذا المقطـع، وسوف يظهر فيها البطلان هو وهى ينزع كل منهما فى اتجاه مغاير لاتجاه الآخـر، ولنلاحظ أن المقطع يتكون من سـتة أبيات يخصص طرفاهـا للبطلة ووسطها للبطل حيـث تتحدث عنه الأبيات الثـانى والثالث والـرابع، على حين يخصص لها الأول والخامس والسـادس، وتشكيل المقطع على هذا النحـو يضع البطل فى قلـب البطلة ويجعلهـا تحيط بـه إحاطـة السـوار بالمعصـم حتى وإن بـدا بينهما لون مـن التعارض الخفيف يتمثل فى الوجـد من جانبه واللامبالاة من جانبهـا، وهى لامبالاة تسوق البطل إلى المتاهة والرفض:

أنا للمتاهة راض بما تحكمين
ولا أطلب القلب.. هذا الذى أخذته
العيون العميقة.. أخفته بين ضلوع الرياح
ولا أسمع الليل شكواى إنى أسافر
كالسيف
فوق النهار المراوغ

وتحت ستار المساء الذى
يغرق الآن بين نقيق الضفادع
ولا أطلب الحكم . . هذا الهشيم الذى
بعثرته الزوابع
ولا أطلب العفو . . إنى وضعتك فى القلب
لا أبتغى
من زمانى شفاء المواجع

إن المقطع الذى يبدأ راضيا (أنا للمتاهة راض) وينتهى راضيا (إنى وضعتك فى القلب) يغلى داخله بالرفض ، ويقوم بناؤه الأساسى على حرف النفى لا مسندا إلى فعل المتكلم الأول : (لا أطلب القلب ، ولا أسمع الليل ، لا أطلب الحلم ، لا أطلب العفو) وهذا النفى المتكرر للطلب هو نغمة الإباء والأنفة التى تصدر عن المحب الجريح ، وهى تصدر مصحوبة بلون من تعذيب النفس من خلال السفر فوق النهار المراوغ وتحت ستار المساء ، وارتباط عذاب الحب بعذاب السفر تمثل واحدة من النغمات الأساسية فى التراث الشعرى ، سواء فى ذلك القصيدة العربية القديمة التى تظهر فيها الناقة ضاربة فى الصحراء فى مثل هذه المواقف ، أو فى التراث الرومانسى الذى غالبا ما يستعير الصحراء أو المتاهة التى اختارها الشاعر فى المقطع الذى معنا ، ولا أدرى لماذا ذكرنى هذا المقطع برائعة فكتور هيجو «غدا من الفجر» التى تعالج موقفا مماثلا وإن كانت تأخذ اتجاها مقابلا[1] .

سأرحل عبر البرارى
وعبر الصحارى
فما عدت أحتمل الصبر عنك بعيدا
سأمشى
عيناى لا تبصران سوى ما يدور بقلبى
وأذناى لا تسمعان دبيب الحياة
وحيدا غريبا
حنى الظهر واشتبكت راحتاه
حزينا . . تشابه عندى النهار مع الليل
سأمضى ولن يستثير عيونى

---

(١) انظر ترجمتنا لهذه القصيدة التى نشرت فى مجلة البيان الكويتية . يونيو ١٩٧٨ .

تبر المساء الوليد
ولا روعة الأشرع القادمات
تبدو بعيدا
وتسعى وئيدا
إلى الشط
وحين أجىء لقبرك
سوف أحط عليه
بباقة آسى
وزهرة فل

إننى لا أريد أن أمضى فى المقـارنة بين القصيدة الفرنسية والقصيدة العـربية إلى أبعد من أن إحداهما ذكرت بالأخرى ، وأنهما معا تأكيد لارتباط فكرة السفر بحركة الوجدان ، أو لنقل اختيار الحركة الخارجية كمعادل موضوعى للحركة الداخلية يضعها تحت المجهر فى الفضاء الخارجى وفى الصحـراء أو المتاهة غالبـا . أن الحركة التى طورهـا أبو سنة فى المقطع السـابق واتخذت شكل « الرفض المحب» تعود مـرة أخرى لتتخذ شكل « الإيجاب المقبل » فى مقطع تال يخلو مـن حروف النفى ويمتلئ بأفعال الإيجاب وتتصدره أداة الاستـدراك « لكن » التى تومئ إلى تغير المسار :

ولكننى أبتغيك
وأعرف أنى بعيد
وأعرف أنى وإن غبت طالع
ولكننى مثل سيف الحقيقة والضوء
أسكن هذى الخلايا التى يزهر العشب فيها
أدخل جسمك مثل البذور
التى تسكن الأرض حتى يجىء المطر
وأمضى إلى مقلبتك لأرسم ما ابتغيه من الغد
أرسم شكل المسافات فى الضوء
شكل النجوم التى سوف تأتى
وشكل البحار التى سوف تولد

وأمضى إلى شفتيك اللتين تبوحان لى بالمسرة
تدخل روحى لروحك

إن هذا المقطع لا يقابل المقطع السابق عليه من حيث اتسام الأول بالنفى والثانى بالإيجاب ومن ثم خلو المقطع من كل أدوات النفى فحسب ولكنه يقابله كذلك من حيث اتجاه الحركة ونوعها فإذا كان اتجاه الحركة فى المقطع السابق يلخصه أنه « ابتعاد عن» فان اتجاه الحركة هنا يلخصه أنه « اتجاه إلى» وإذا كانت الحركة الأولى كانت تلف حول نفسها مكتفية بدمدمات النفى ، فإن الحركة الثانية تظل تتحرك من موقع إلى موقع ، وكلما كسبت موقعا ثبتته وتركته إلى ما يليه ، والذى يتأمل فى العلاقة بين أفعال الحركة المتتالية فى المقطع يدرك ذلك جيدا . فهنالك الأفعال : « أسكن» ومن بعدها « أدخل» ثم أمضى» ثم « أرسم» حتى يتوج المقطع بالامتزاج الكامل «تدخل روحى لروحك» ، وهو التحام يذكر بالدائرة التى رسمتها القصيدة فى مفتتحها وأحاطت فيها المحبوبة بالمحب رغم إشارات التعارض أو التدلل بينهما ، وإذا كان التقارب الأول إرهاصا فهذا تجسّده وإذا كان نداء فهذا صداه .

لقد كان الحوار من قبل يجرى بين المحبين وحدهما إغراء أو صدا وقربا أو بعدا حتى تم الالتحام فبدا على الفور طرف ثالث ، هو المنافس على ذلك الحب ، وهو ليس فردا ولكن الضمير الذى يشير إليه هو ضمير الجمع :

فلا يقدرون على فصلنا
ولا يقدرون على قتلنا
ولا يقدرون على عشقنا
وهم يزعمون بأنك ملء قلوبهم الآن
عفوا . . لأنك ملء أكفهم . . .
لا . . ليس عشقك هذا الذى يدعون
ولا ليس قلبك هذا الذى يملكون
ولا ليس موتى هذا الذى يعلنون
أنا لا ألومك

إن كل خلايا القصيدة تتجمع لكى تطرد هذا الخطر الداهم بعد أن ذاقت حلاوة اللقاء والالتحام ، ومن هنا فإن عنصر النفى يعود من جديد بعد أن كان قد اختفى فى المقطع السابق ، وهو يعود مكثفا حتى إننا نجد منه عشر أدوات فى تسعة أبيات ، وهى تنقسم

بدورها إلى مجموعتين إحـداهما يسلط فيها النفى على الفعل من خـلال الأداة « لا » والثانية يسلط فيهـا على الاسم من خلال الأداة «ليـس » معززة مرة أخرى بـالأداة « لا » وربما تشتد خلايا النفى حول الاسم لأنه يمس بصفة مباشرة جـوهر العلاقة التى تدافع عنها القصيدة «ليس عشقك» ، « ليس قلبك» ، « ليس موتى» ، وإذا كانت تسع من أدوات النفى العشرة فى المقطـع قد وجهـت إلى هـؤلاء « المنافسين المزيفين» فـإن الأداة الأخيرة وجهـت برفـق إلى الحبيبة « أنا لا ألومك» وهو نفى يحمل فى طياته معنى الإيجاب ويمهد لموجة التعادل الأخيرة بين الإيجاب والسلب والتى تختتم بها القصيدة :

إنى أحبك رغم ازوارك عنى
ورغم شتاء الفصول الذى
أتقيه بعينيك
لاتغفرى ان نسيت
و لاتفرحى إن شفيت
ولا تحزنى إن بليت
وحين يظنون أنى ما كنت
قولى لهم قد أكون
وحين يظنون بى لوثة من جنون
فمدى جذورك فى القلب
مدى عيونك فى السحب
تيهى على الأرض انى أحبك
حتى نهاية هذاالزمان الخئون

إن المقطع يتعـادل فيه ثـلاث من جمل النفـى أو النهى (لا تغفـرى ، لا تفرحـى ، لا تحزنى) مع ثلاث من جمل الإيجاب (قولى ، مـدى ، تيهى) وهو يحيط الموقفين جميعا بجملة « إنى أحبـك» يضعها فى بدايـة المقطع ونهايته تـأكيدا للالتحـام الذى سعى إليـه منذ أول القصيدة .

إن القصيدة ـــ من هذه الـزاوية ـ تشكـل عالما مستقـلا تتعادل فيه الجزئيـات على نحو دقيق ، كما تتعادل الجزئيـات فى العوالم والكائنات المستقلة فى الكـون الخارجى ، وربما كان الفنان يحاكى الطبيعة بالمعنى الأرسطى القديم ، أو يقلدها فى الإبداع كما يقول جورج بوفون

فى مقاله الشهير « مقال فى الأسلوب[1] » عندما يشير إلى جـوهر الجمال فى الطبيعة : « لماذا تبدو أعمال الطبيعـة أمامنا شديـدة التكامل ؟ لأن كل عمـل هو « وحدة» وهو وفقـا لخطة خالدة لا تنحـرف أبدا ، فالطبيعة تعد فى صمـت بذور إنتاجها ، تصمم مـن خلال ضربة واحدة الشكـل المبدئى لكل كـائن حى ، وتطور ذلـك الشكل وتحسنـه من خلال « حـركة دائمة» فيـأتى إنتاجها مـدهشا ، لكن الـذى ينبغى أن يدهشنا هـو الحدث الإلهى ، الذى ليست الطبيعـة إلا صورة له . . . والـروح الإنسانية . . . لـو حاكت الطبيعـة فى خطواتها وطريقة عملها . . . إذن لشادت فوق أسس وطيدة معالم خالدة » .

وأيا كان الأمر فإنه من خلال الاهتداء إلى هذا العالم الداخلى للقصيدة يمكن الاهتداء إلى بقية جوانبها ، ويمكن الامتداد بـالتفسيرات والتصورات والعناصر دون أن تتحول القصيدة إلى مجرد معالجة لموضـوع وطنى أو عاطفـى أو تعبير عن مذهـب سياسى ، أو تجربـة لرص قوالب لغوية متجاورة .

---

(١) انظر ترجمتنا الكاملة لهذا النص فى مجلة فصول ، تحت عنوان « نصان من البلاغة الأوربية الوسيطة» (القاهرة : ١٩٨٤) . وانظر فى تحليله كتابنا : «النص البلاغى فى التراث العربى والأوربى ١٩٩٣ .

المبحث السادس

الإفادة من إمكانيات الشكلين في القصيدة الحديثة

حامد طاهر

في سنة ١٩٨٤ أعاد حامد طاهر تجميع ما كتبه من شعر خلال ما يقرب من ربع القرن ونشره في مجلد واحد يحمل اسم « ديوان حامد طاهر [١]» وكان قد نشر جزءا من هذا الشعر في ديوانين سابقين ضما شعره وشعر زميلين له ، وصدر أولهما بعنوان : « ثلاثة ألحان مصرية[٢] » وصدر الثاني بعنوان : « نافذة في جدار الصمت[٣] » . وقد صدر الديوانان السابقان بمقدمتين نقديتين كتب أولاهما الدكتور أحمد هيكل وكتب الثانية الدكتور محمود الربيعي ، على حين صدر الديوان الأخير بفصل كتبه حامد طاهر نفسه تحت عنوان : «تجربتي مع الشعر » وقد احتل هذا الفصل نحو خمس صفحات الديوان التي تبلغ في مجملها مائتين وعشرين صفحة من القطع الصغير.

والواقع أن ديوان حامد طاهر يمثل صفحة هامة في تاريخ القصيدة المعاصرة وتجربة طويلة النفس في التعامل مع الشعر تلقيا وتشربا من مدارسه المختلفة ، وإسهاما وعطاء خصبا وجيدا على تنوع المذاق وتعدد الدرجات ، ولابد أن يلتقي قارئ الديوان أو لا بالفصل النثرى الذى كتب تحت عنوان « تجربتي مع الشعر» وهو في الواقع يعرض « تجربته مع الحياة» كإطار واسع ضم الشعر وروافده من العلم والتجربة والصداقة والحب والأمل والإخفاق والسفر والإقامة والمناخ الذى أحاط بالرحلة الحياتية في مجملها . ومن ثم فإن هذا الفصل على « شاعريته» أقرب إلى الترجمة الذاتية ، التي تنبع التجربة الشعرية دون شك

---

(١) القاهرة : مطابع سجل العرب ، ١٩٨٤ .

(٢) القاهرة : الهيئة العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧١ .

(٣) القاهرة . مكتبة الشباب سنة ١٩٧٥ .

منهـا ولكنها تظـل أوسـع إطارا ، وهـذه الترجمة مليئـة بـزخم الحاضر والـوعـى به وتحليـل العلاقـات داخله وانعكاسها على صـاحب الترجمة ، وهى فى سبيـل رسم هذه الغايـة تتبع المسيرة من بدايتهـا فى أحياء القاهرة الشعبية حتـى ذروتها فى ضواحى باريس مـرورا بالأزهر ودار العلوم والحيـاة العسكرية واللغـة الروسية ودراسة الفلسفـة والتخصص فيها وتـزدحم بأسماء الأعـلام التى تكون الشبكـة الرئيسية للعـلاقات المباشرة أو غير المبـاشرة ، فتصل إلى مائة وثلاثة عشر علما على امتداد الصفحات الأربعين للمقدمة ، وقد كان من شأن ذلك أن امتلأت المقدمة بـالنبض والحركة والحيوية مما يمكن أن يعكس ضـوءه من بعيد على قصائد الديوان دون أن يوجد بالضرورة ربطا مباشرا بين هذه وتلك ، وإذا كانت معظم الأعلام التى وردت فى المقدمة هى « أعلام شخصية » لأناس معروفين بـأعيانهم ومكانتهم ، فإن هنالك جانبا آخـر « لأعلام غير شخصية» يرد عند سرد الـذكريات مثل « كـان على أن أحفظ قدرا من القرآن الكـريم فى مسجد المستعلى بالله عند الشيـخ سيد وهو شبه كفيف ظـل يعاملنى بقسوة ، حتى اضطـرنى لرشوته ببعض الهدايـا المنزلية» أو « أذكر أننى كنـت أصغر شيخ فى معهد القاهرة الـدينى وأننى كنت موضع سخـرية عم إبراهيم بقال شـارعنا الذى كان يترك زبائنه عندمـا يرانى ويخرج من المحل صائحـا : « أهلا يا شيخ حامد» أو «مـع السلامة يا فضيلة الشيـخ» أو عند حديثـه عن شقاوة صغـار المكفوفين فى الأزهر . « أذكـر أن الشيخ عصفـور راهـن أحـد زمـلائه على أن يـأكل فى وجبـة واحـدة سبعـة أرغفـة مـع الطعمية والسلاطات » وعلى هذا النحو تتناثر بعـض الأعلام « غير الشخصية» فى صفحات المقدمة وهى تترك ظـلالها على الحدث العادى تجسيدا وحفرا لـه فى ذاكرة المتلقى على النحـو الذى انطبعت به فى ذاكرة الكاتب .

فاذا مـا ترك القارئ المقدمـة إلى الديوان ، فـإن موجة مـن الشعر الرقيق المحكـم سوف تقابلـه على امتداد ستين قصيدة تضمها المجمـوعة تتميز جميعـا بالسلامة الموسيقيـة ، وهى ملاحظـة على بساطتهـا أصبحت ذات معنى فى الـوقت الـذى يجد فيه القـارئ فى دواوين بعض مشاهير الشعراء بعضـا من التجاوزات الموسيقية ـ وهذه الموسيقـى تتجاوز فى معظم الأحايين حد السلامة فى الديوان إلى حد تحكم الشاعر فيها وإدخالها عنصرا فى بناء فنى راق كما سيتضح عند قراءتنا لبعض النماذج أثناء معايشتنا للديوان .

وموسيقى الديوان تستفيد من كثير من الإمكـانيات التى أتيحت للقصيدة العربية سواء فى شكلها التقليـدى أو فى شكلها الحديث . ومـن هذه النـاحية يكاد يتـوازى الشكلان فى الديوان ، فمن بين قصائده الستين تنتمى سبع وعشرون قصيدة إلى الشكل التقليدى وثلاث

وثلاثـون إلى الشكل الحديث ، ويتـوزع هذا التنوع على المراحل الثـلاث التى قسم الشـاعر إليها ديوانه ، وهـى المرحلة الأولى ، والمرحلة المتوسطة ومرحلة باريـس وما بعدها[1]، وإن كانـت المرحلة الأولى يغلـب عليها الشكـل التقليدى للقصيـدة ، والمرحلة الأخيرة يغلـب عليهـا الشكل الحديـث ، مع انتماء إحـدى قصائدهـا (بكـائية : ينـاير ١٩٨٤) إلى بحـر الخفيف الأثير لدى الشاعر والذى عزف عليه كثيرا فى مرحلتة الأولى .

هذه الثنائية ميزة أولى فى ذاتها ، جعلت الشاعر ينتمى إلى المدرستين الشعريتين كليهما أو إلى الشعر الجيد أيا كان لونه ويستفيد من إمكانياتها جميعا ، وهى ملاحظة يمكن أن تتعدى فكرة التصنيـف الشكلى وتمس جانبا هامـا من المشاكـل التى تقع فيها القصيـدة الحديثة . وقصيدة الشعـر الحر على نحو خاص ، عندمـا لا يكون الشاعـر على ألفة قوية بـالموسيقى التقليدية و إمكانياتها فتخفت موسيقى القصيـدة بين يديه أو تنطفئ ، وهو مالا يحدث أبدا مع قصـائد الديـوان التى بين أيدينـا حيث تظـل السلامـة الموسيقية من نـاحية وحسـاسية اللجوء إلى القـافية الاختيـارية فى قصيـدة الشعر الحر مـن ناحيـة ثانيـة ، عاملين ينعشـان موسيقى الشعر على امتداد صفحات الديوان .

هذه الثنـائية فى شكـل القصيدة يدعمهـا تنوع كبير فى البحـر الشعرى الـذى تجئ عليه قصائد الديوان ، والـديوان يكاد يلجأ إلى معظم تشكيلات التفعيـلات المعروفة فى القصيدة العربية ، فهنـالك اللجوء إلى التفعيلة المزدوجة مـن خلال ثلاثة أبحـر ، وهى : « الخفيف (فاعلاتـن مستفعلن فاعلاتـن) الذى يبدو أكثر البحـور التقليدية ترددا فى الـديوان ، فقد وردت منه سبع قصائد فى مـرحلتيه الأولى والمتوسطة ثم عاد الشاعر إليـه بقصيدة بكائية فى المرحلة الأخيرة :

اللـيـالى مليئـة بـالأمـانـى　　فلـم الصبـح قـاتـم الألـوان
وعـلام الطيــور مكتئبـات　　واصفرار الـذيول فى الأغصـان

---

(١) الشاعر هو الذى اختـار هذا التقسيم على صفحات الديوان ، لكن من الواضح أن المراحـل عنده تتداخل عند التطبيق العملى ، فعلى حين يضع قصيدة « مشهد من مسرحية مرفوضة » فى المرحلة المتوسطة ويشير إلى أنها كتبت فى يوليـه سنة ١٩٦٣ ، يضع قصيدة نهايـة المغامرة (مارس سنـة ١٩٦٤) وقصيدة الحاقد (مايـو سنة ١٩٦٤) وأيضا قصيـدة فلسفة المنظار الأسـود (ديسمبر سنة ١٩٦٣) يضعهـا جميعا فى قصائد المرحلـة الأولى ، مع أنها كتبت بعد مشهـد من مسرحية مرفوضة ، وليسـت هناك إشارات تدل على أن الشاعر اختـار معيارا غير المعيار الزمنى فى التقسيم !

وهى عودة لها دلالتها كما أشرنا من قبل . وفى إطـار التفعيلة المزدوجة أيضا يلجأ الشاعر إلى بحر الطويل بموسيقاه العريقة (فعولن مفـاعيلن فعولن مفاعلن) ثلاث مرات ، ثم إلى بحر السريع بموسيقاه الحادة العذبة فى قصيدة الخطأ :

حتـى الـذى كنـا نظـن المنى   فيـه تـلاشـى سحره وانطفـأ

لمـــا وصلناه وصلنـا وقـد   أدركـت الأشواق هـذا الخطـأ

وإلى جانب أبحـر التفعيلة المزدوجة ، يتم اللجـوء إلى أبحر التفعيلة الواحـدة وهى تلك التى تستخدمها القصيدة فى شكلها التقليدى أو فى شكلها الحر . والشاعر يستخدم بعض هذه التفعيلات فى الشكلين معا ، ويقتصر أستخدامـه لبعضها الآخر فى أحد الشكلين دون غيره .

فمن الأبحـر الأثيرة لدى الشـاعر فى الشكلين معـا ، بحر الكـامل ، الـذى يسخدمـه الشـاعر تـاما ومجزوءا أو يستخـدمه استخـداما حـرا فى نحو سـت عشرة مرة فى صفحـات الـديـوان ، وتختلـط تفعيلة الكـامـل « متفـاعلـن» فى بعـض الأحيـان مع تفعيلـة الـرجـز «مستفعلن» وهو اختلاط معروف عند العـروضيين ويحدث لدى دخول بعض الزحاف على إحدى التفعيلتين ، ويحدث هذا فى بعض قصائد الديوان ، لكن تفعيلة الرجز تعرف بدورها ظهورها المتميز فى نحـو تسع قصائد فى الديوان تنتمى إلى اللونين التقليـدى والحر، ثم تأتى بعد ذلك تفعيلـة الرمل « فاعلاتـن» التى تتكرر ثمانى مرات فى قصـائد تقليدية تتراوح بين الشكل التام والمجـزوء وقصائد حرة ، وكذلـك أيضا تفعيلة الوافـر « مفاعلتن» التى تـأتى أحيانا ممزوجة بتفعيلة الهزج « مفاعيلن» وترد منها ثلاث قصائد تنتمى إلى اللونين التقليدى والحر .

وإذا كان الشاعر قد لجأ إلى ثلاثة بحـور من ذوات التفعيلة المزدوجة (الخفيف والطويل والسريـع) واستخدمهـا فى شكل القصيـدة التقليديـة ، وأربعة أخـرى من ذوات التفعيلـة الواحدة (الكامل والـرجز والرمل والوافر) واستخدمها فى قصـائد تنتمى إلى الشكلين ، فإنه يلجـأ إلى بحريـن من ذوات التفعيلـة الـواحدة هما (المتـدارك والمتقارب) ليستخـدمهما فى قصـائد تنتمى إلى الشكـل الحر ، سبع تنتمـى إلى تفعيلـة المتدارك (فـاعلن) أو إلى صـورة الخبب منهـا (فعلن) وسـت تنتمى إلى تفعيلـة المتقارب (فعـولن) بـإمكانيـاتها العروضيـة المختلفة .

لقد أردنا مـن خلال هذا الإحصاء السردى السريـع للأنماط الموسيقية فى «ديوان حـامد

طاهـر» أن نبين الوجه الآخـر لظاهرة تعـرضنا لها فى دراسـة أخرى حول درجـات الإيقاع فى موسيقى الشعـر الحر وتبينا كيف أن أثر خفـوت الإيقاع الموسيقى لا يتوقـف عند القصيدة التى تـوجد فيهـا الظاهرة، وإنما يستشرى فى روح الشـاعر الـذى يركن إليـه ، وتتولـد عنه ظواهر موسيقية أخرى منها التداخل والاضطراب والـوقوع فى النثرية ، لكننا هنا نرى الوجه الآخر للموسيقى الشعريـة عندما تكون حية فى وجدان الشاعر فـلا تصبح عبئا على إنتاجه بقدر ما تصير عونا له، ولا يصبح التحلل منها هدفا فى ذاته وإنما يتم اللجوء إليها بدرجاتها المختلفة حتى عندما يجيز العرف فى القصيدة الحديثة التخفف من بعض درجاتها كما يحدث فى اللجوء الاختيارى للقافيتين الداخلية والخارجية فى مثـل هذا المقطع من قصيدة « وجه فى القاهرة»[1] .

الصمت فى دمى يثور
كأسد مأسور
تعثرت خطاه بالحبال
وهاجه الجمهور
وحينما انكفأت فوق صدرك
الذى ينوء بالثمر
وفاح شعرك الندى فى ثنايا الريح
نفضت عن حقائبى جهامة السفر
وقلت استريح . . استريح . . استريح

إذا كانـت الموسيقى عنصرا غنيـا يلفت النظر فى هـذا الديوان فـإن الصورة لا تقـل عنه غنى، وحامد طاهر فى بنائه للصورة ، ينمى ألـوانا مختلفة منها ، فهو أحيانا يقطر القصيدة فى صورة ، أكاد أقول تلخصها أو تشكل مفتاحها ، وتعلق باللسان والذهن فى سهولة ، وقد تكون هذه الصورة المفتاح فى بدء القصيدة ، مثل مفتتح « أولى كلمات الحب[2] » .

أيهـــا التـاج علـى مفـرقهـا   مـن تـرى يملك قلـب الملكـة
إنهـا تخطـــر لا تعـــرفنـــا   نحن مـن نملأ أرض المملكـة

وقد تكون الصورة فى نهاية القصيدة ، كما فى قصيدة الخطأ[3] :

---

(١) ديوان حامد طاهر : ص ١٧٤ .   (٢) ص ١٥٥ . (٣) ص ١٦٦ .
(٣) ص ١٦٦ .

حتى الــذى كنا نظــن المنــى فيــه تلاشــى سحرة وانطفــأ

لمــا وصلنــاه وصلنــا وقــد أدركت الأشواق هــذا الخطأ

وهذا النوع من الصور المقطرة يقترب من « بيـت القصيد» بالمعنى التقليدى، وهو يشيع فى بعض قصـائد حامـد طاهـر وعلى نحو خـاص تلك التـى تنتمى مـوسيقيا إلى الشكـل التقليدى للقصيدة.

أحيانا ينمـى الشاعر تكنيكا آخر، تتجـاور من خلاله الصور، لكنهـا تهدف من خلال تجاورها إلى أن ترسم صورة كلية مكتفيـة بأن يحدث التجاور إيحاءه دون الإلحاح عليه، وهو منهج قديم يصطنعه الشاعر حتى فى قصائده المبكرة، ولعل مطلع قصيدة شجرة التوت [١] يقدم نموذجا لهذا التكنيك:

خضرة الأرض والقرى والسواقـى ورمـال علـى المـدى وسحـابة

وجمـــوع مـــن الحـمام. . وراع يتغنى . . . ونخلتان . . وغابة

وصفــــير القطـار ينـداح فى الأفــق وتجـرى خطـواته وثـابة

وكذلك مطلع قصيدة الترحيلة [٢] :

الجباه السمـراء فى وهج الشـــمس ونبـض السـواعد المعروقـة

والفئـوس التى تـرن على الصخـر وأكتـاف صبيــــة مشقوقـة

ورنــين المـــوال إعــوال ريـح فى صـــدور عـريـانة محروقـة

إن مثل هـذا المنهج الـذى يستعين بالتصـوير عـن التعليق، يختصر الجانـب النثرى فى عملية الإدراك الشعورى، ويترك للتفاعل بين الصور المتجاورة حرية النمو، ويترك للحدث حرية الدوران السريع، وللمتلقى متعة الربط والاستشفاف والوصول.

والشاعر غـالبا ما يمهد بهذه الصور المتجـاورة الأرض أمام قارئه ليدخـل به فى « قصة» القصيـدة، والقصيـدة عنـده غـالبـا قصة، وذلـك لـون مـن الأداء الفنـى يهب القصيـدة التماسك، والنمو المطرد الذى يشده إطار خارجـى إلى جانب تماسك الخيوط الداخلية، ثم هو يقترب بالقصيدة الغنائية من روح « الدراما» القائمة على الفعل وتشكل القصائد هنا فى معظم الأحايين ما يمكن أن يسمـى بالدراما الغنائية حيث يتداخـل التأمل والسرد تداخل

---

(١) ص ٩٨ . (٢) ص ٩٢ .

العناصر المختلفة فى تشكيل مادة طبيعية ، وتتكفل القصيدة بصهر المواد فى بوتقتها لتصير كلا واحدا لا أمشاجا متجمعة ، ولابد من الإشارة إلى أن هذا المنهج القصصى فى بناء القصيدة كثيرا ما يفلت بالقصيدة الحديثة من أسر الغموض والاستغلاق وهو واحد من ألد أعدائها الذين فصلوها عن قارئها وسامعها وجعلوا كثيرا من وحداتها تدور فى آفاقها الخاصة وترسل إشارات لا يلتقطها أحد . لكن ذلك لا يعنى أن القصيدة القصصية تشف عن نفسها بسهولة إنها فقط تحول جهد القارئ فى التأمل إلى ما تعتقد أنه أكثر خصوبة فبدلا من أن يتجه التأمل إلى الصلة التى تربط كل جزئية بالتى تحيط بها ، عليه أن يتجه إلى الآفاق الواسعة التى يمكن أن ترتادها القصيدة فى صورتها العامة ، أو عليه أن يقنع بقدر من المتعة لا تحرمه القصيدة منه فى مستوى من مستوياتها .

إن الشاعر قد يومئ فى بعض الأحيان إلى الآفاق التى ترتادها القصة الشعرية كما هو الشأن فى قصيدة « الوجبة[1] » ، ذلك المشهد اليومى المتكرر فى الغابة والذى نسجت منه حكايات أدب الحيوان عشرات القصص منذ عهد « أيسوب » و«بيدبا» و«لقمان» و«ابن المقفع» و«لافونتين» . ولكن الشاعر يحاول إعادة صياغة القصة القديمة :

كان قطيع الثيران يغطى السهل
أسود فى لون الليل
الأعين ياقوت أحمر
تسكبه الشمس على العشب الأخضر
وقوائم ملفوفات كعروق الصخر
ورؤوس منكفئات أبدا
تفرك جبهتها بالأرض
كان قطيع الثيران كأمواج البحر
ملتحما لا يدع صغيرا يفلت من دائرته
ورهيبا كان يزمجر كالبركان المتقطع

ولنلاحظ أن حركة « الكاميرا» هنا تأخذ الجزئيات التى تعنيها وتخضعها لاتجاه تريده ، فهى ترسم حركة هابطة من أعلى إلى أسفل ، ومن ثم يأتى تتابع الصور من الأعين إلى القوائم إلى العشب إلى الأرض حيث تنكفى الرؤوس عليها وتحتك بها ، إلى موج البحر وحتى

---

(١) ص ١٩٦ .

عندما تأتـى صورة البركان فى الخاتمة فإنها تأتى متقطعة تعلـو ثم تهبط ، إن هذا الخط الهابط الذى تعتريه ذبـذبة فى نهايته هو إرهـاص مبكر بما سيتحول إليه أمـر القطيع ، وهذا الخط سوف يتغير مساره فى المقطع التالى من خلال تغير الحركة والمشهد والإيقاع :

وفجأة تدافع الزئير من وراء صخرة
وأحدق الأسد
عينان تقذفان بالشرر
وقبضتان من حديد
وقفزة موقعة

إن إيقاع المقطع قد تغير أولا ، وكأنه الموسيقى التصويرية المحيطة بالمشهد تتغير بتغيره، فبعد أن كـان المقطع الأول يسير على « فعلن ، فعلـن . . فعلن» وهى حـركة بطيئة تنـاسب قضم الثيران الـرتيب للحشـائش، إذا بالمقطع التـالى يتحول إلى « متفعلـن . . متفعلن . . متفعلن» وهى حـركة سريعة تناسـب فجائية ظهور الأسـد من وراء الصخر، ثم تغير ثـانيا حجم المشهديـن، فبعد أن كان « قطيع» الثيران « يغطـى السهل » ملأ فراغ المشهـد الثانى «أسد واحد» ثم تغير اتجاه الحركة . فلم تعد حركـة بطيئة هابطة تلتصق بالأرض وإنما حركة سريعة صاعدة، تبـدأ بالعينين وتنتهى بقفزة فى الهواء ولسوف يخلع هـذا التناقض الحاد أثره المباشر على حـركة القطيع الهادئة السـاكنة فتتحـول إلى اضطراب وهلع ولكنهـا تحافظ على إيقاعها الموسيقى :

اندفعت أمواج الثيران
الأرجل والأيدى تتطاير
تتطاير فى عزف همجى شارد
نحو طريق منفتح لا تعرف أين يؤدى
واختلط الأكثر خوفا بالأكثر قوة
فى الإفلات من الموت الجائعة أظافره لحشاها
والفارد لبدته خلف قوائمها .

إن حركة الفوضـى والاضطراب تخلع نفسها على كل شىء حتـى على بناء الصورة وليس تقديـم المسند إليه فى الصـورة الثانية « الأرجـل والأيدى» على المسند « تتطـاير» إلا لونـا من إعطاء الإحسـاس باللهـاث، وإرسال الصـور أرسالا خـاطفا، ومـن هنا فقـد لا يستريح

القـارئ كثيرا لاسترخاء النفـس فى الصورة قبـل الأخيرة : « فى الإفـلات من الموت الجائعـة أظافره لحشاها» .

فبالـرغم مـن جودة خامـة الصورة فـإن نسيجها من خـلال (منعوت + نعـت سببى + معمول لـذلك النعت السببـى + جار ومجرور متعلق بالنعـت السببى) هذا النسيـج المطول جعل خيوط الصورة تتراخى فى يد الشاعر، وتبدو كالتصوير البطىء فى وسط حركة سريعة متلاحقة ، لكن هـذا المشهد فى مجمله ما يلبث أن ينقشع عن مشهـد آخر، وإذا كنا لاحظنا أن المشهد الأول كان جماعيا ، والمشهد الثانى كان فرديـا ، فإن هذا المشهد سوف يكون ثنائيا غير متكافئ :

ولم يكد ، يحدد الفريسة الأسد
حتى تعثرت بخطوها
وانحبست فى صدرها الأنفاس
من قبل أن تغوص فى عروقها خناجره
وفى السماء
ألف غراب زاعق . . وألف نسر
كان يتابع « الرواية المفضلة»
وحينما انتهى الأسد
مخلفا مائدة على عظامها بقية من اللحوم
ابتدأت معركة مبتذلة

إن هذا المشهـد بدا مكثفا لآخـر مدى حتى إنـه صور لقطـة ماقبل حـدث الالتهام . . ومـابعد حـدث الالتهام . . دون أن يقـف عند الحدث الـذى هو بـؤرة القصيدة ومحورهـا الرئيسـى على طريقة « إيجاز الحذف» المعـروف فى البلاغة العربيـة أو على طريقة التصـوير السينمائى الحديث ، عندما يكتفى بلقطة نتائج المعركة عن لقطة المعركة ذاتها ، ومن أمارات التكثيف كذلك أن تتم الإشـارة إلى قصة ثانوية دون الدخول فى تفاصيلهـا (ابتدأت معركة مبتذلة) لكى تفتح المجال لتخيل جانبى يتحرك فى جنبات اللوحة .

لقد كـان لافونتين عندمـا يصوغ حكايـة على لسان الحيوان ينتهـى أحيانا بـاستخلاص مؤشرات صريحة أو موحية[١] ، على هذا النحو يختتم حكاية الحيـوانات المرضى بالطاعون :

---

(١) انظر : الأدب المقـارن : النظرية والتطبيـق . د. أحمد درويش ـ ص ٦١ ومـا بعدها . مكتبـة الزهراء : القـاهرة ١٩٨٤ . (الطبعة الثالثة ـ دار الفكر الحديث ـ القاهرة ١٩٩٦)

« تبعا لما تكون عليه، قويا أو ضعيفا، سوف يـأتى عليك حكم الحاشية، أبيض أو أسود» وعلى نحو مماثل تنتهى حكاية اللبؤة والـدبة : « أيها الناس التعساء، إن هذا موجه إليكم، إنه لا يرن فى أذنى ، إلا نواحـات عابثة وفى كل حالة مماثلة يـرد الاعتقاد بكره السموات» ، وعلى نحو قريب من هذا تأتى نهاية قصيدة « الوجبة» عند حامد طاهر :

عاد قطيع الثيران إلى السهل الأخضر

ما فكر

إن الدورة قادمة . . حين يجوع الأسد الكاسر

بل لم ينظر

حتى للجمجمة الملقاة على طرف السهل .

إن المسافة بين الخامة البسيطة لحكايـة الثيران والأسد وهى تراث مشترك ، وبين الصورة التى آلـت إليها الحكاية فى القصيـدة وهى تراث خاص، مسـافة شديدة الاتسـاع، وهذه المسافـة فى الواقـع هى «الشعـر» الذى يقوم بـدور الكيمياء فى مـزج العناصر التـى يتناولها وتخليق عنصر جديد منها يصدق عليه أنه ليس العناصر الأولى وليس مضادا لها .

وإذا كان الشـاعر يلجـأ فى اختيار عناصر القصـة إلى الموروث الشائع أحيـانا ، فـإنه فى أحيان كثيرة يلجأ إلى مواقف حياتية بسيطـة ، تبدو فى ذاتها مواقف محايدة يمكن أن يتناولها الحديث العـادى، أو الإخبارى ، أو الصحفـى ، فلا يبـدو من خـلال التناول أنها تحمـل عنـاصر تعلو عـن عنصر « الحدث الجارى» ومـن تستوقفـه التفـاصيل الصغيرة فى « حيـاة موظف بسيـط» أو الأمنيات الطائرة لعابـر أمام « واجهات المحلات» يملـك زهو الشباب لكنه لا يستطيع أن يرد على سؤال محبوبته عن رأيه فى ثوب جميل معروض[1] .

وأمام الواجهة الملأى بفساتين الصيف

وأشياء الزينة

كانت تتوقف عيناك على ثوب معروض

فى زاوية ملعونة

وتشدين بكفيك ذراعى

ـ ما رأيك ؟

لا طعم له !

---

(١) ص ٧٦ .

ونشق زحام الناس
نشق زحام الناس بخطوات ملعونة

إن خيوط هذه القصة الشعرية التى تنسج من حدث بسيط عابر، وتقال بلغة : شديدة الألفة والعذوبة، سوف تبلغ قمتها الشعرية من خلال تكنيك يروق لحامد طاهر فى قصصه الشعرية، وهو إظهار المفارقة الحادة فى النهاية، فهذا الحلم الذى يولد فى نفسه بامتلاك ثمن الفستان ، سوف يتحقق ولكن فى أية لحظة :

ليلى
كم من صيف ولى
واليوم أعود إلى واجهة الأمس
فى جيبى ثمن الفستان
عيناى عليه
لكن ذراعى مرخاة
مرخاة فى يأس

إن كثيرا من أحداث الحياة الجارية التى دعا إليها شعراء من أمثال « وردزورث» و«جاك بريفير» و«العقاد» عرفت طريقها إلى الديوان وأديت بطريقة شعرية ولغة لا ينقصها العمق ولكنها لا تفتعل الغموض ، ومن هذه الزاوية فالديوان ينتمى إلى اتجاه فى البناء اللغوى يعمل على إزالة الجفوة التى نشأت بين القصيدة الحديثة وقراء الأدب العربى، وهو لا يلجأ إلى التحجر الذى قد يتسم به بعض نتاج الشعر التقليدى ولا إلى الايغال فى الرمز والغموض الذى يلجأ إليه بعض أنصار « الحداثة» ولكنه يستفيد مما يقدمه التراث الشعرى الجيد فى كلا الاتجاهين من تقاليد ، وما تقدمه القراءة الجيدة والحساسية المرهفة من تعمق ، وما تقدمه الموهبة الأصيلة التى وجدها الشاعر بين يديه صبيا فلم يله بها، وإنما نماها ونمته حتى كان من نتاج ذلك كله ذلك الديوان ذو المذاق المتميز فى تاريخ القصيدة العربية المعاصرة .

المبحث السابع

ملاحظات حول أدوات التشكيل الأولى للقصيدة

عبدالفتاح شهاب الدين

فى إحدى الأساطير اليونانية القديمة يظهر شاعر موسيقى يدعى « أورفى» بقوة خارقة ، فهو يستولى من خلال عذوبة منطقة وجمال صوته على الكائنات فى عالم البشر وفى عالم الحيوانات، بل ويتجاوز التأثير الساحر هذه العوالم إلى عالمى النبات والجمادات. وعندما تموت زوجته « أوريديس» ويشتد حزنه عليها، ويقرر الرحيل بحثا عنها فيغنى لآلهة الموت التى تسحر بشعره فتفتح له أبواب العالم الآخر للبحث عن زوجته ، وعندما يعلم أنها فى الجحيم يقرر أن يقتحم النار من أجل البحث عنها وهناك يؤثر أيضا بشعره فى آلهة النار ويطلب منهم السماح له بأن يعود بأوريديس التى يحبها فيوافقون ولكنهم يشترطون عليه شرطا واحدا، أن يمر من أمامها دون أن يصوب إليها نظرة أو يوجه إليها كلمة. ولكن الشاعر العاشق عندما يقترب من حبيبته لايستطيع أن يتمالك فيندفع نحوها صارخا. وهنا يحكم عليه بأن يعود من حيث أتى كما أتى خالى الوفاض.

هذه الأسطورة القديمة المتجددة يمكن أن تصور جزءا من خصائص المعاناة الشعرية فى كل العصور، فالشاعر صاحب القوة الآسرة كان وما يزال يملك مفاتيح هذه القوة حتى فى عصر طغيان التصور المادى والحسابات المرئية وصلته بما وراء عالم الإنسان لم تنقطع أبدا وهو حتى اليوم والغد يغمس ريشته فى مداد الطبيعة الصامتة والناطقة ويستمع إلى الكائنات الحية والجامدة، وهو بقوة الحب وحدها يستطيع أن يكمل تأثير « أورفى» فيمن حوله وما حوله ، ويستطيع أيضا أن يتحمل قسوة النار فيندفع إلى أتونها بحثا عما ينشده، ولكنه عدما يقترب مما يظن أنه هدف الرحلة كلها، تنقلب الأمور على نحو يعود معه خالى اليدين ، متجدد الظمأ إلى رحلة أخرى قد لا تختلف نتيجتها عن الأولى ، ولكنها تؤكد فى نهاية المطاف أنه لا ينبغى أن نتلمس حصادا محسوسا من رحلة كهذه ، نضعه بين أيدينا ،

ونقول : هاهـو الشاعر قد عاد بشىء . وإنما يتـوزع الحصاد فى الرحلة كلها بـدءا من لحظة السحر والتأثير حتى لحظة الاكتواء بالنار والتهاوى أمام عينى الحبيبة .

هذا التصور الأسطورى للمعاناة الشعرية تكاد تلتقى عنده الأجيال على تعاقبها والآداب على اتساعها ، ولكن هذا التعميم الذى يكـاد يستوى فيه آلاف الشعراء فى تاريخ البشرية ، يحتاج إلى سلسلة من « التخصيصات » تختلف من أدب إلى أدب ، وفى داخل الأدب الواحد تختلف مـن جيل إلى جيـل ، وداخل الجيل الـواحد من جماعـة إلى جماعة ، وداخـل الجماعة الواحـدة من شاعر ، إلى شـاعر وقد تختلف عنـد الشاعر الـواحد من لحظة تجربـة إلى لحظة تجربة أخرى ، من قصيـدة إلى قصيدة حتى نصل إلى تحديد للخصائص الفـردية يربطها فى ذات الوقت بالملامح الفعلية العامة لهذا الجنس الخالد .

والقصائد التى يضمها ديوان الشاعر القاهرى عبد الفتاح شهاب الدين تدور من حيث العموم فى هذا الإطار الواسع للتجربة الشعـرية ومن حيث الخصوص لشاب عربى مصرى ينشر قصائده الأولى فى الـربع الأخير مـن القرن العشريـن . وهو مـن هذه الـزاوية يمثـل بالضرورة جزءا مـن خصائص اللغة والفن والجيـل الذى ينتمى إليه ، وإن كـان يمثلها كما هو الشأن فى كل مبدع على نحو يحاول فيه أن يتفـرد بمذاق خاص ويسلم فيه من سلبيات شائعة ويتفاوت حظه فى التفرد والسلامة من قصيدة لأخرى .

وأول رابط عـام يربطه بالفـن الذى ينتمى إليـه هو «موسيقـى الشعر» ومن هذه الـزاوية فالقصائد التـى بين أيدينا تكتب كلها على نظـام « شعر التفعيلة» المتحرر من التـزام القافية الموحدة . واختيار هذا النظام يعنى تحديد اختيار الشاعر فى البحور العروضية ذات التفعيلة الواحدة المكررة (الرجز والكامل والـوافر والهزج والرمل والمتقارب والمتدارك) واستبعاد تسعة بحور تتعدد فيهـا التفعيلات (الطويل ، البسيط ، المديـد ، المنسرح ، الخفيف ، المجتث ، السريح ، المضارع ، المقتضب) ، ولكـن شاعرنا قام بدوره بتحديد الـدائرة مرة أخرى وكاد يقصر اختياره على ثلاثة بحور هى الرجز والمتقـارب والمتدارك بالإضافة إلى استخدام طفيف للوافر والرمل . وهذا التحديد داخل فى حرية الاختيار عند الشاعر وهو ليس بدعا فى ذلك فهناك شعـراء آخرون معـاصرون يقصرون اختيارهـم على بحر بعينـه لا يتعدونـه . وإن كان يلاحظ فقط من خلال قانون التوازن الغريـزى أن المتلقى عندما يفقد الثراء والتنوع فى ناحية من العمـل يبحث عنها فى ناحيـة أخرى منه وذلـك من شأنـه أن يلقى عبئا إضـافيا على المبدع ، وإذا كـان الشاعـر قد حـدد دائرة اختياره فى هذه الأبحـر فإنـه قد التـزم ـ غـالبا ـ بأصول الوزن المتفق عليها ، لكنه فى قليل من المواقف ند عنه ضبط الإيقاع بحيث كان يبدو

البيت مكسورا أو فى حاجة إلى مد ومط حتى تستقيم موسيقاه، وإذا كانت تلك الظاهرة قليلة التردد فى الديوان فإن الإشارة إليها واجبة والتنبيه إليها ضرورى والتهاون فيها من شأنه أن يقود إلى ظاهرة تفشى أخطاء المبدعين وتصلبهم دون الاعتراف بها، وادعائهم شيئا فشيا أن هذا « فن جديد» !

ليس من الضرورى أن تتنوع الأداة الفنية كثيرا ولكن من الضرورى أن يتنوع استخدام الأداة حسب الموقف والبناء وصلتها بالأدوات الأخرى المجاورة لها، والشاعر يوفق غالبا فى توظيف أدواته، فالصورة عنده على سبيل المثال، تتنوع بين صورة جزئية متتالية أو صورة واحدة كلية تنمو وتتشعب، وهى من خلال الصوت الذى يصدر عنها تتراوح بين استقلال الأصوات الأحادية أو تقابل الأصوات من خلال الديالوج أو تداخلها من خلال المونولوج، وتأتى التركيبات اللغوية لكى تساعد الصورة فى حفر مسارها وإيجاد تأثيرها .

فى قصيدة « أرجوزة المنفى» (ولنلاحظ عابرين أنها أرجوزة من بحر المتدارك لا من بحر الرجز، ويبقى التساؤل حول اختيار العنوان أو اختيار البحر معلقا) .

فى هذه القصيدة يحاول الشاعر رسم صورة لجسور الاتصال الظامئة بين العاشق الولهان والحبيبة البعيدة المنال. ويختار لقصيدته نظام المقاطع المرقمة، وعلى مدى ثلاث منها تبلغ القصيدة المدى المقدر لها، ونلاحظ أن النغمة فى كل مقطع تختلف عن المقطع الآخر تبعا لدرجة الحركة وإتجاهها، ففى المقطع الأول تبدو الصرخة قادمة من اتجاه واحد، اتجاه العاشق الذى يصيح بكل قوته لكى يصل صوته إلى أذن المعشوقة التى لم تع بعد بوجوده فتساعده على الحركة أو تعطيه دافعا لها ومن هنا فإن النغمة التى تسود هى نغمة « فعل الأمر للمخاطبة» :

انفينى فى جزر العينين الملتهبة
وضعينى فى بوتقة اللامعقول
ردينى للماء المنساب على شفتيك الشاهقتين
ضمينى بين شرائط شعرك
وضعينى خاتم عطر فى اصبعك الذهبى
خلينى عندك

مفاتيح الأبيات جميعا تحمل هذه النغمة، التى تحث على الحركة وتطلب دافعا لها أو تشجيعا عليها، وعندما تجدهذه الصرخة مداها فى التجربة وتبدأ ردود أفعالها حتى دون أن

يحدثنا الشاعر عن ذلك ، تتغير نغمة الفعل ومن خلالها يتغير اتجاه الحركة ومناخ التجربة، فمن خلال فعل الخطاب الذى يدل على طلب العون فى الحركة والمساعدة فى بدئهاعبر المقطع الأول عن فكرته، وجاء المقطع الثانى لكى يعبر من خلال انتقال بسيط عن بدء الحركة ذاتها وعن تطورها ـ من خلال العقل ـ حتى يحدث الالتحام ، وذلك الانتقال جاء من خلال اختيار فعل « المتكلم» المضارع بصيغة المفرد فى بداية المقطع وبصيغة الجمع فى نهايته :

ها إنى أرحل كى نتلاقى فى غربتنا
ها إنى أتوغل فى الأوهام
. . أيتها الحسناء الحائرة النفس
لن نبقى حتى تتخطفنا سفن البعد

فالصوت الذى كان مفردا وثابتا واستاتيكيا فى المقطع الأول من خلال صيغة الفعل ، بدا من خلال صيغة أخرى للفعل فى المقطع الثانى متوحدا أو ساعيا إلى التوحد ومتحركا وديناميكيا، والفرد الذى كان يصرخ دون صدى أصبح يقول « إنى أرحل كى نتلاقى» وهو تعبير دقيق موجز يعبر عن بدء الحركة فى ضمير المفرد أرحل وهدفها وغايتها فى ضمير الجماعة نتلاقى .

لكن حركة الشاعر ليس لها هدف بسيط ساذج ولا خط ثابت تريد الوصول إليه ولكن يبدو هدفها متحركا مثل خط انحناء القبة الزرقاء على الأرض فى الفضاء البعيد كلما اقتربنا منه ابتعد عنا، أو لنقل إنه مثل هدف « أورفى » صاحب الأسطورة اليونانية إذا ظن أن هدفه على بعد خطوات تفلّت من بين يديه فى شكل خطأ قدرى لا مناص منه، ومن هذا المنطلق فإن القصيدة التى بين أيدينا تعود فى المقطع الثالث مرة أخرى إلى فعل المخاطبة وقد أشعرت فى وقت واحد بحدوث التواصل ونقصانه، بتحققه وطلب المزيد منه :

مدى عطرك كى أتسلل عبره
مدى صوتك كى أتحلل عبره
مدى كفك مرة
مدى وامتدى
وخذينى بين يديك القاهرتين
أعطينى اسما أو بيتا .

ولنلاحظ على الصور التى أعانت على تحقيق الحركة على هذا النحو، أنها أعانت أيضا على رسم المناخ الملائم لتصورها، فتجربة التواصل بين العاشق والمعشوقة هى فى شكلها البسيط الأولى تجربة لقاء بين الرجل والمرأة تستلزم تفرد العاشق وتفرد المعشوقة وسعيهما إلى التوحد فى ثوب « معقول»، لكن تجربة العشق هنا تذهب إلى أبعد من العلاقة البسيطة التى أشرنا إليها وتسعى إلى رسم تجربة عشق أبعد مدى لا تتحقق فيها معقولية اللقاء ولا تتم من خلال تفرد عاشق واحد وإن تمت من خلال معشوقة واحدة :

وضعينى فى بوتقة الحب اللامعقول

* * *

تنتظر الفرحة أن ننتقل إليها
فى الناحية الأخرى من خط المعقول الأزلى

* * *

حين أتيت إليك أغنى
لم أك أعرف أنك مأوى
للعشاق المنبوذين

هذا المناخ الذى قادت إليه الصور من خلال تركيزها على « اللامعقول» وعلى عدم تفرد العاشق، يوسع من مجال تجربة العشق والاتصال هنا فيجعل آفاقها تمتد لتشمل حب الحقيقة، أو الكلمة، أو الوطن، أو المثل، دون أن تضع لنفسها حدودا « معقولة» تضيق من إطارها، ودون أن تتوقف عند تقديم إشعاع واحد مبسط.

فى بعض قصائد المجموعة ينجح الشاعر فى أن يحكم التجربة ويضيق من الدائرة ويكثف منها وكأنه يحكم شد الوتر جيدا فينطلق سهمه إلى هدفه، وفى بعض التجارب الأخرى يقع تحت إغراءات صور ذات رنين خاص أو تعليقات ذات طابع تجريدى فتسترخى قبضته على الوتر ومن ثم يضطرب مسار السهم قليلا ، ومن نماذج اللون الأول قصيدة : « على هامش الهجرة الأخيرة» وقصيدة : « انتظار الوعد فى قطار الحلم والذاكرة» وقصيدة « الحب والرصاص» و«أغنية نازفة» ومن نماذج اللون الثانى قصيدة : «النهاية» وترنيمة حب فى قصيدة «على هامش الهجرة الأخيرة» يشف البناء عن أنه يمكن الإفلات من نغمة الرتابة فى الشكل إذا أحسنا توجيه الأداة، فمع أن الأداة البلاغية الغالبة على بناء القصيدة هى أداة الإنشائية والاستفهامية على نحو خاص :

لماذا تهاجر منك الطيور

وكانت تحوم على بابك المستدير
وتسقط فوق النوافذ
تلقط كل البذور
لماذا
أهذى شهور الرمادة
أم إن السنابل صارت قلادة
على صدر من يجهلون العبارة
لماذا
يحيرنى الصمت

* * *

وأسقط فى عمق ذاك السؤال المرير
لماذا تهاجر منك الطيور

مع أن نغمة واحدة استفهامية هى التى تسود ، فإنها تنجح أولا فى تنويع جوانب هذا الاستفهام الذى لا يكتفى بالحيرة البليدة ، وإنما ينجح فى تقليب « الكوامن» والاحتمالات ثم يساعد هذا التكرير من ناحية ثانية على إبراز « القيمة السلبية» فى الأسلوب الإنشائى ، وهى قيمة تزداد أبعادها وضوحا من خلال وجود كلمات مثل « تهاجر» ، «الرمادة» ، «يجهلون» ، « الصمت» ، لكى تجسد فى النهاية من خلال الاستفهام والكلمات السلبية ، مدى وجود هوة سحيقة فى « عمق» السؤال المرير، لايحدث لها اتزانا إلا هجرة الطيور البعيدة فى «عنان» السماء ، ولنلاحظ التوازن ، بين « العمق» دافع الحركة ، و«العنان» موطنها ومجالها .

يظل الشعر لغة فى المقام الأول ، ومن خلالها تتجمع كل المقومات الأخرى فتكون مدخلا إليها وواجهة لها ، ومن هنا فليس المطلوب من الشاعر فقط أن تتحقق له السلامة فى اللغة ، وإنما أن يتجاوز بالتأكيد ذلك من خلال لغة منتقاة موحية ، ومفهوم السلامة اللغوية ، فيه جانب مطلق وجانب نسبى ، والجانب النسبى فيه يتعلق بأذواق العصور والأجيال والأفراد فى القبول والر، د وهو جانب يتيح دائما مجالا للشاعر إلى حركة واسعة قد يسوغ من خلال البناء فيها مالم يكن قبل سائغا ، وقد يسلط أضواء باهتة على ما كان يبدو من قبل أكثر تألقا ، لكن الجانب المطلق فى السلامة اللغوية يتعلق بما تقره اللغة من

التراكيب ومالا تقره . ومحاولات الحركـة فى هذا المجال محدودة غالبا أمام الشـاعر ـ والمبتدئ على نحو خـاص ـ ومـن الخير له فى هذه الحالـة أن يقنع بالـرقص فى السـلاسل وأن يحاول التدرب على الحركة الفنية من خلالها .

والمجموعة التى بين أيدينا تتسم فى عمومهـا بهذه السلامة اللغوية ـ فى الجانب المطلق ـ ولكنها فى بعض الأحايين تدفـع إلى مجرى القصيدة بتعبيرات تثير علامات استفهام كبيرة ، وسوف أكتفى ببعض الأمثلة السريعة .

فى قصيدة : الحب دائما « وجنتى التى طردت دونها جريرة» .

فى قصيدة : « انتظار الوعد» :

يركلنى الجحيم الأتت خلفت

وفى رأسى تفيض الأبحر ـ النشوة

فى قصيدة : « الحب والرصاص» والاشتياق اغتيام على شفـة القيظ والاندلاع . . وأنا لا أود أن استقصى هـذه التراكيب ، ولكننـى أود فقط أن أنبه كما نبهـت فى الهنات العـروضية التى أشرت إليها من قبل ، إلى أن الفنان الجيد ينبغى أن يحمى نفسه مما تقدم إليه الذاكرة من مخزون لغوى من خـلال نقد ذاتى ، وينبغى لنـا نحن أيضا أن نساعـده على ذلك ، قبل أن يتصلب العمل الفنى لديه ، ويصبح جزءا من الذات يصعب نقده أو إنكاره أو قبول النقد الموجه لـه ، وقبل أن تتراكـم التجاوزات عند بعـض المبدعين ، فينظـروا هم إليهـا أو ينظر غيرهم إليها على أنها لون من « التجديد» .

لهذا كله ومع هـذا كله فأنا أعتقـد أننا أمام شاعـر واعد ، تجمعت لديـه خيوط النجاح لتجربة شعـريةناضجة ، وعناصر التثقيف الـلازمة لوضعها فى إطار الفن الـذى تنتمى إليه واللغة التى تظهر من خلالها ، وتكونت لديه بـالإضافة إلى ذلك صلابة العود بحيث أصبح قادرا على أن يستمـع إلى ملاحظات الآخريـن فى ثقة ، دون تصلب ودون اضطـراب ، وهو من خلال هذا كله يعرف طريقه فى إطـار الدورة الخالدة التى كان يبحث فيها « أورفى» عن محبوبته أوريديس .

المبحث الثامن

القصيدة المعاصرة بين الاستقلال والانتماء

ناجي عبد اللطيف

تحاول القصيدة المعاصرة أن تشكل لنفسها عالما يتسم بخاصتين متناقضتين هما الاستقلال والانتماء فى آن واحد . فهى عالم مستقل من حيث التشكيل الفنى والحدود المرئية أو الملموسة أو المحسوسة أو الموحى بها ، وفى إطار البحث عن الحدود يقترب الفن الشعرى من الفن القصصى ، ويحاول كل على طريقته أن يسور منطقة ما من الزمان والمكان . وتتعدد الأشكال التى يمكن أن تكتسيها هذه الأسوار الخفية بين التدوير والتربيع والنتوء والاستقامة وانحصار المساحة حينا حتى تكاد تلامس أرنبة الأنف واتساعها حينا آخر حتى تشارف تخوم القبة الزرقاء للأفق البعيد وتمتد إلى ما وراءها موحية بلا نهائية الامتداد . ومن خلال هذا التسوير الذى تصطنع فيه القصيدة لغة الزمان ولغة المكان تسنح فرصة أخرى لتأكيد أبعاد الاستقلال حين تبدو معايير الأزمنة والأمكنة داخل العمل الفنى شديدة الاختلاف وأحيانا شديدة التباين عن هذه المعايير خارج العمل الفنى ، وحين تبدو حرية الحركة والانتقال بين أطراف الزمان المختلفة سهلة المنال ، وسرعة التجوال بين أطراف المكان أقرب إلى لغة البساط السحرى وخيول الأساطير القديمة ، وحين يبدو منطق التقسيم الحاد الذى صنعته الألفة للأزمنة والأمكنة وكأنه سبيكة معدنية صهرت فى حميا الشعر فأصبحت ذائبة يمكن أن يعيد الشاعر وأن نعيد معه تشكيلها من جديد دون أن نجد غرابة فى أن يصير المربع دائرة وأن تتمازج العناصر التى كانت من قبل متباعدة وأن يحقق الشعر من خلال ذلك مع عناصر اللغة ما تحققه الكيمياء مع عناصر الطبيعة من إعادة للصهر والتشكيل والفصل والوصل ويصبح فن الشعر بذلك كما يقول النقاد المحدثون « كيمياء اللغة» .

واللغة أيضا مظهر رئيسى لاستقلال القصيدة ، ولعله من أكثر مظاهرها استعصاء على الترويض وخضوعا للاستقلال ، والشاعر مع اللغة أشبه بمن يحاول أن يقيم علائم

واضحة داخل ماء متحرك، فهو يجابه إلى جانب الحركة التى لاتكاد تتوقف، التشابه الذى لا يكاد يتناهى، إنـه يستخدم « لغة الناس» ولا مناص له من ذلـك ، ويجد بين يديه نفس الكلمـة التـى قيلـت آلاف المرات وعلقـت بها مـن خـلال ذلـك كلـه عشرات الإيحاءات واستخدمـت من قبل فى معـارض باردة وفاتـرة ودافئة وسـاخنة وتعرضـت من ثم لعـوامل التمدد والانكماش، وهـو عليه من خلال ذلـك كله ـ ومـع ذلك كله ـ أن يستخـدم نفس الكلمة استخداما جديدا مستقلا تنسب بها إليه، وأن يردد شكوى الشاعر القديم (ما أرانا نقول إلا معارا) لكنه حين يلتقط الكلمة يحاول أن يكسبها معنى الاستقلالية والتلاؤم مع ما حولها والملكية الفـردية لها، وإذا عدنا مرة أخـرى إلى طريقة صهر العناصر لكـى تتلاءم مع بعضها البعض من خلال كيمياء الشعر، فإن مفردات اللغة فى القصيدة لابد أن تمر بدورها بمرحلة مشابهة، إنها تحتاج لأن تكتسب درجات حرارة متقـاربة، ودرجات بريق متوازية، ونفسا شعـريا متجانسـا، تصبح اللغة من خـلاله ملكا لقـائلها ولا يصبح هـو ملكا لها، ويصبح الشـاعر فى تعـامله معها وفى رغبتـه فى إعطاء لـون من الاستقلال لتجـربته عـارفا بالحدود المختلفـة التى تختلط فى أعين الآخـرين وتتميز بفضل تجربتـه إن كانت نـاجحة ، ويصبح شأنـه مع ذلك الموج المتحرك حركـة دائمة والمتشابه تشابها لا نهائيـا، شأن البحار الخبير الذى يفرق بين موجة له وموجة عليـه ، والذى يعرف خطه الملاحى فوق صفحة الماء وكأنه طـريق معبد محدد الجانبين يراه بوضـوح ويعرف انحناءاته ومخاطره ، ويشعـرنا بمتعة الحركة فيـه وبأننا نملك البحـر ولا يملكنا، ونغوص معه داخلـه فنكتشف الأسرار دون أن يبتلعنا.

لكن هـذا الاستقلال الـذى يمكن أن تتشعب مظـاهره وتنطبـق على كثير من جـوانب العمل الشعرى، تقابله خاصية أخرى هى الانتماء وهى خاصية تتميز بها القصيدة الجيدة، فهنالك دائما « الحبـل السُّرى» الذى يربط بين القصيدة وشـىء ما فى عالمنا والـذى تتوقف على درجة إحكامه وإشعاعه ومدى مباشرتـه أو عدم مباشرته ومدى تعدد واتساع وحدات الشبكة التـى ترتبـط به أو ضيقها وانحصـارها، يتـوقف على ذلك كلـه أشياء كثيرة تـرتبط بمعايير تقييم القصيدة وقد تختلف من عصر إلى عصر ومن أدب إلى أدب.

لقـد كان الشـاعر التقليـدى يربـط مبـاشرة بين القصيدة ومـوقف معين فى زمـان معين لشخص معين، عندمـا كانت قصيدته تتصدرهـا عبارات مثل : « وقال يمدح فـلانا وقد فعل كذا» و«قـال يواسيه وقد حـدث له كذا»، وهو من خـلال ذلك الربط كـان يظهر لنا «الحبل السرى» واضحا، لكن ذلـك « الحبل» كان خادعا فى كثير من الأحـايين، فلم تكن

المياه كلها تصب فى ذلـك الاتجاه ، ولا كان الإشعاع يركز على هذه البقعـة وحدها ، وإلا لما بقـى لنا مـن ديوان المتنبـى شىء ، ولكـن دائرة التبعية كانـت تتسع فتشـد إليها كثيرا مـن المواقف ، وإشعاعات الضوء كانت تتسرب فتغمر كثيرا من النفوس ، وهى من خلال ذلك تتخطى حاجـز الزمان والمكان ، وجـاءت فترة على القصيدة الحديثة حاولـت أن تنكر فيها وجـود «التبعية» تخوفـا من الـوقوع فى دائرة « شعـر المنـاسبات» وأن تجعـل نفسها تـدور فى «المطلق» أو أن توهـم بذلك أو أن تتكلفه . وكثير مـن الأزمات التى وقعت فيهـا القصيدة الحديثـة جاءت مـن وراء الجرى وراء ذلـك السراب« المطلـق» دون اصطناع جيـد لأدواتـه الضرورية ، لقد كان « جوته» يقول : «إننـى لم أكتب شيئا إلا ووراءه مناسبة ما» ، والمهم أن نعرف كيف نستغل المناسبة وهى « دافع خاص» فى إبداع فن يكون ذا « إشعاع عام» ويجعل هذه المناسبة تُنسى ولا تنسى فى آن واحد ، إن الـذى صمم « برج ايفل» فى فرنسا صممه فى الواقع « بمناسبة» إقامة معرض للصناعات الحديدية فى مارس ١٨٨٩ وكانت تلك المناسبة هى « الحبل السرى» الـذى يربط استقلالية العمـل الفنى بلحظة معينة فى الـزمان والمكان دون أن يفقده عمومية الفن وخلوده .

تلجأ القصيدة المعاصرة أحيـانا إلى « الإهداء» كوسيلة من وسـائل الربط بين الاستقلال والانتماء ، والديوان الذى بين أيدينا يهدى إلى «و. . ف . . م» والقصيدة الثانية منه تهدى إلى صديقين شـاعرين يـذكر سميهما كـاملين هذه المرة دون الاكتفاء بـذكر الحروف الأولى . . وذلك لون من المعمار يشيع فى القصيدة الحديثة ، ومن ثم ينبغى التوقف أمامه قليلا وتقليب بعض مـدلولاتـه . إن الاكتفاء بـذكر الحروف الأولى هـو امتداد طبيعـى لذلـك النوع مـن «التغطية» والشعائر التى كـان يفرضها الشاعر القديم على اسم « المحبـوب» خاصة ، وكان الشعر القديم يلجأ إلى وسائل متعددة فى هذا الإطار ، فهنالك اللجوء إلى أن يعبر عن اسم المحبوب باسم عام ، ولعل « ليلى» هى أشهـر الاسماء التى تتحول من خلال الشعر إلى رمز يغطى مـن خلال الكشف ويعمـم من خلال التخصيـص ، ويصبح معه معنـى « العام» الذى يحدد « مسمـى بذاته بعيـد المنال ، ويتحـد معه فى مجال التعبير عن هـذه الخاصية فى الشعر القـديم ، اللجوء إلى وصـف المؤنث بصفة المذكـر ، ويظل النداء المشهـور فى الشعر العربى « يا حبيبى» عندما يخاطب الشاعر حبيبته علامة بارزة على ذلك ، كأن الشاعر يريد أن يخفى مـن يتحدث عنـه فى « غلائل» الإبهام ، ومـع ذلك فهو يـريد أن يقـول إنه مـاثل هناك ، ويأتى الرمز الذى يصطنعه شاعرنا وكثير من الشعراء المعاصرين من خلال الاكتفاء بالحروف الأولى للأسماء ، تأكيـدا على وجود ذلك « الحبل السرى» الذى أشرنا لـه من قبل ،

بين الاستقلال والانتماء ، بين خصوصية الدافع وعمومية الفن ، وأيضا تأكيدا على امتداد الروابط بين الشعر فى قديمه وحديثه فى اصطناع وسائل متشابهة ، مع تحوير يتلاءم مع ظروف زمن السرعة والاختزال .

لكن اهداء القصيدة لشخص معين وباسم صريح يفجر لحظة أخرى وموقفا آخر فلسنا فى مجال « الإبهام» وإنما فى مجال الربط الصريح الواضح . . وقد نتساءل أحيانا عن مدى وضوح الربط ، فى عين القارئ الناقد بعد أن يقرأ القصيدة ، لا فى عين الشاعر قبل أن يكتبها ، وقد نتساءل أيضا عن القدر الذى ستخسره القصيدة لو حذفنا ذلك الإهداء ، وعن القدر الذى كسبته حين أضفناه . . ولنقترب أكثر ، من قصيدة « هروب» التى يهديها الشاعر إلى صديقيه الشاعرين عبد الرحمن عبد المولى وعبد المنعم كامل .

تتقدم القصيدة فى البداية من خلال تكنيك التقديم البطىء للجزئيات :

عيناك ترسفان فى القيود نجمتين من شبق
والوجه ما بين الكتاب والسوار . . يحترق
والصاحبان غمزتان فى الممر
وضحكتان تخرجان العين فى فضول
من رحلة الفؤاد والألق . .

ولعلنا من خلال هذه اللقطة الأولى نحس مدى فنية الشاعر فى تحريك « الكاميرا» فى سرعة خاطفة ما بين العين والنجم ، وهما قمة فى التباعد وبين الوجه والسوار والكتاب وهى قمة فى التقارب لترتسم فى البداية دائرتان متفاوتتان ، ثم الانتقال الثانى فى إطار عناصر الصورة ما بين الجزئيات المرئية ، «العين والوجه والكتاب والغمزتان» ، وبين الصورة المسموعة «الضحكتان» ثم هذا الانتقال الأخير بين هذه الصورة المحسوسة فى مجملها وبين الصورة المجردة « رحلة الفؤاد والألق» وإن كان الانصهار لايبدو كاملا ومحكما بين جزئيات هذه الصورة الأخيرة .

ثم تتقدم عناصر القصيدة بعد ذلك لترسم الصراع بين رغبتين ، تحاولان الالتقاء وتفصل بينهما الحواجز ، ويشتد الجزر والمد بين عناصر الالتقاء متمثلة فى الرغبة ومحركاتها الخارجة من خلال إغراء الصاحبين ، وعناصر الابتعاد متمثلة فى العقبات الطبيعية التى تجعل أحد الطرفين يرسف فى القيود والطرف الآخر يرسف فى الأوراق :

مابيننا درب من المخاوف الرتيبة

ولحظة غريبة

وساعة تشد وجهنا

تنقر الزمان

ترسف الخطى وتكتم الألق

عيناك ترسفان فى القيود

معذرة عيناى ترسفان فى الورق . .

وتصوير لحظات الصراع من أدق ما تتعرض له القصيدة عندما لا تريد أن تكون قصيدة مسطحة ، والمدى الذى ينجح الشاعر فى الوصول إليه ، هو الذى يحدد درجة التوازن فى العمل الفنى ، وبالتالى درجة التوازن فى النفس التى تتلقى ذلك العمل ممثلة فى القارئ والسامع وتتوازن مع نفسها من خلال صراع القصيدة وتوازنها ، وتحدث المتعة الفنية من خلال هذا كله . . ومن هنا تأتى الأهمية فى دقة الاختيار أثناء رسم الصورة لكل العناصر الصغيرة للأفعال وأزمنتها ، للصفات ودقتها ومدى الحاجة إليها ، لأدوات الربط وتأثيرها على مناخ التوازن المنشود ، على جزئيات الصورة وعلى «اللمسات» الصغيرة التى تضاف هنا أو هناك والإيحاء الذى تتركه ، أو الانطباع الذى تغيره ، وفى ضوء هذا كله قد يحسن أن نقرأ فى القصيدة التى معنا البيت الأول ونربطه بالبيت الأخير :

عيناك ترسفان فى القيود نجمتين من شبق

عيناك ترسفان فى القيود . .

معذرة عيناى ترسفان فى الورق

إن اللمسة التى ختم بها البيت الأول « شبق» عكرت على جو السلب الذى كان يمكن أن يحكم الصراع ويزيد منه ، فالواقع أن « الشبق» هو «رغبة نهمة» ومادامت تظهر فى البيتين فمن الصعب تصور أن تظلا راسفتين فى القيود مشعتين بالشبق فى آن واحد . . إن الطرف الذى يشع بالسلب فى هذا الموقف ، هو الذى يرسف فى قيود الورق ، فهو الذى يكتفى بالزفرات المحرقة ، لكن « شبق» العيون يجعل الحركة بين الطرفين لا تتعادلان كما أرادها الشاعر فى المقطع الأخير ، وتلك واحدة مما يمكن أن تحدثه « اللمسات» أو الصفات على مجرى التوازن فى القصيدة . .

تسيطر الثنائية على هذه القصيدة (هروب) فهى تبدأ « بعينين» وتهدى إلى « صديقين» ويجرى الصراع فيها بين «طرفين» يرسفان فى القيود ، ومن الطبيعى أن يشيع فيها التعبير بالمثنى تبعا لذلك ، لكن الشاعر يركب موجة المثنى فتغريه حتى حين يغيب عن ظلال الثنائيات :

والصاحبان « غمزتان» فى الممر

« والنظرتان» تعبران شارعى الطويل

« فالمثنى » واحد من اللوازم التى تتردد فى القصيدة الحديثة ، وتكثر الإشارة إلى «الدمعتين» و«الكلمتين» و«النظرتين» ويمكن أن نحيل إلى قصيدة « النورس والحلم الكسيح» بهذا الديوان ، وأخشى أن تكون موسيقى التثنية وما لها من إيقاع خاص تقف وراء شيوع هذه الظاهرة ، على أنه ينبغى أن تثور التساؤلات أيضا حول الدلالة الدقيقة للمثنى فى اللغة ، ومدى ارتباطه بمعنى محدد لشيئين اثنين (كما تشير تعريفات النحاة) أو دلالته على مجرد الكثرة دون تحديد كما توحى بذلك بعض الاستعمالات فى بقايا المثنى فى اللغات العامية الحية (أقول لك كلمتين) . . مثلا . . . ومدى الدور الذى يمكن أن تلعبه لغة الشعر فى الاغتراف من أحد النبعين أو منهما فى آن واحد .

على أن قضية الإهداء إلى « صاحبين» لا تنتمى هذه المرة إلى ذلك اللبس فى استخدام المثنى فهما محددان ومسميان ، وإنما يمكن أن تنتمى إلى ظلال التقليد القديم فى الشعر فى توجيه الحديث إلى صاحبين فى مطلع القصيدة (يا صاحبى تقصيا نظريكما) . . . (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) . . إلخ .

وتنتمى أيضا إلى تلك الظاهرة التى أشرنا إليها فى مزج القصيدة بين الاستقلال والانتماء ، واللجوء إلى « حبل سرى» يربط القصيدة المستقلة بواقع ما . . ويبقى السؤال دائما فى مثل هذا اللون من وسائل الربط . . إلى أى حد كان اللجوء إلى هذه الوسيلة بعينها ضروريا فى مثل هذا الموقف؟ وما الذى كان يمكن أن تفقده القصيدة لو تغيرت الأسماء أو حذفت؟ .

تتعدد الأشكال التى يمكن أن تكتسيها أسوار القصيدة الخفية بين التدوير والتربيع والنتوء والاستقامة ، وانحصار المساحة حينا حتى تكاد تلامس أرنبة الأنف ، واتساعها حينا آخر حتى تشارف « تخوم القبة الزرقاء للأفق البعيد» ولعل قصيدتى «الدائرة الزرقاء» و«قراءة» فى أوراق الذاكرة» تقدمان نموذجين مختلفين من هذه الزاوية ، فالدائرة الزرقاء تأخذ لقطة يمكن أن تلتقى فيها القصة القصيرة والشعر، ولكنها تعالج هنا بطريقة شعرية جيدة :

كانت ترقد فى عينيه

فتسلبه النوم

يعربد فى الحلم وحيدا
كل صباح
يفتح شباك القلب وشباك المخدع
يأمل أن تطلع
لكن القلب بجنبيه شراك تخدع . .

لة الأولى قدمت كثيرا من عناصر السلب والإيجاب التى تتوالى محدثة ذلك القدر
، من التوازن الذى أشرنا إليه من قبل ، فمع أنها فى عينيه فهى شديدة البعد عنه
لا ينام فهو يحلم ، ومع أنه يفتح شباك القلب وشباك المخدع إلا أن ضلوعه
» على قلبه تصدمه بالشراك الخادع . وهكذا فى لقطة قصيرة تكاد تكتمل الدائرة
التوقع ـ الإخفاق) .

ن الدائرة تغلق فإن الشاعر يفتحها من جديد ، وهو يقترب منها هذه المرة بنفس
لسحرى الذى فتح به الدائرة الأولى : (كان) ذلك الفعل ذو الايحاء القوى
ـ من التراث ، والتراث الشعبى والأسطورى على نحو خاص (كان ياما كان)
ـكن أن يهب الشعر مذاقا ماضويا مشربا بالأسطورة :

كان صديقى لا يعرف أن العين كثيرا ما تفضح صاحبها
فتعريه النظرة منها
وتعريها النظرة منه
كان خجولا حين تمر
يطرق لا يملك أن يقرأ فى عينيها السر.

أن القصيدة توهم أنها تتقدم بعد ذلك على خط امتدادى ، وتلجأ إلى تثبت ذلك
ن خلال تحديد نقاط معينة محددة فى الزمان العام والفصل والوقت :

فى العام الماضى
عادت من رحلتها ذات شتاء
أتذكر . . ذات مساء
حدثها

ـذا الإيهام بالتقدم الامتدادى ، فإن القصيدة لا تلبث أن تعود إلى التكنيك الدائرى
ـل الشتاء نقطة لفتح الدائرة وإغلاقها ، لنفض التراب العالق بصندوق البريد

وبداية الرحلة من جديد . . فقط تفتح فى صمت الدورة الأبدية كوة صغيرة تتمثل فى حوار خاطف :

ـ ما اسمك ؟

ـ اسمى

ـ اسمك

وهذه الكوة الصغيرة من شأنها أن تعيد لنا المشاهد السابقة ولكن فى ضوء جديد ، وأن تعطينا فرصة لرؤية المشهد الواحد مرتين ولكن من زاويتين مختلفتين :

كان القلب يدق

وكان الصمت يرق

وكاد صديقى أن يسقط لولا

أن ولت نحو الباب تدق

وحين تضع القصيدة لمستها الأخيرة تحرص على أن تترك الباب مواربا لدورة أبدية لا تتوقف :

يلقى بتحيته المرحة للشباك المغلق

للصندوق المغلق

لليافطة الصدئة . .

للقلب المغلق ألف سلام

ويعيش على الحلم طوال العام .

إن التكنيك الذى اتبع فى اللقطة قبل الأخيرة من قصيدة الدائرة الزرقاء وهو التكنيك المعتمد على رؤية المشهد الواحد من جوانب متعددة دون اللجوء إلى طريقة التقدم الامتدادى . . هذا التكنيك سوف يتطور فى قصيدة « قراءة فى أوراق الذاكرة» التى سوف تعتمد اعتمادا رئيسيا على رؤية المشهد الواحد من زوايا متعددة ، ومقاطع القصيدة نفسها تحمل عناوين ذات دلالة خاصة من هذه الزاوية (من ذاكرة الأشياء ـ من ذاكرة الحب ـ من ذاكرة الخوف ـ من ذاكرة الليل ـ من ذاكرتى) . وهذا التكنيك سمح للقصيدة وهى تدور حول نقطة واحدة أن تتطور شعوريا من لحظة التسليم المطلق . . إلى لحظة اليقظة الكاملة مرورا بمراحل الحيرة والتردد .

لا تتوقف مناقشة أوجه الاستقلال والانتماء عند علاقة الشعر بالحياة ، وإنما تمتد لكى

تشمل علاقـة الشعر بنفسه وعلاقته بألـوان التعبير الأدبية الأخرى وعلاقة الشـاعر بالتراث الذى ينتمى إليه ، فـالقصيدة فى نهاية المطاف هى عمل أدبـى ينتمى إلى جنس أدبى معين لها تقاليـد بعضها قابـل للتطوير والتغيير وبعضها الآخـر أكثر ميلا للثبـات ، ولا شك أن جزءا هاما من تـوفيق الشاعر يعود إلى نفاذ نظرته إلى الفـروق الدقيقة بين الثوابت والمتغيرات فى الجنس الذى يبـدع فيه . . ولا شك أن قضية مـوسيقى الشعر واحدة مـن القضايا ذات الأهمية البـالغة ، وخـاصة فى تلـك الفترة التى يتحرك فيهـا جانـب كبير من الإبـداع الذى ينطوى تحت الشعر إلى النثرية فى أشكالها المختلفة ويبتعـد عن الغنى الإيقاعى الذى تميزت به القصيدة العربية ، والذى جعل الشعر العربى فنا سماعيا تطرب له الأذن قبل كل شىء ، ومن هنا فإن القارئ لديوان الشعراء الواعـدين لابد أن تهزه الأخطاء العروضية التى يقع فيها هـؤلاء الشعراء ، ومـن الصعب أن يسكـت المرء عن مثـل هذه التجـاوزات فى ديوان جيـد (كالديوان الذى بين أيدينا) حتى وإن كـانت قليلة ، حتى وإن كان يمكن أن تستقيم بلون من المط هنا أو المد هناك ، وسوف أشير هنا إلى نماذج قليلة :

١ ـ فى قصيدة « أحبك » :

وهل تفهمين براءة هذا الفؤاد
بكارته . . الصبح هذا الذى افترشناه

٢ ـ فى قصيدة النورس والحلم الكسيح :

ماذا يضير الشمس إذ جاءت من الغروب
إن غالها الشرق
أو خانها شعاع

٣ ـ فى قصيدة الخوف من دائرة الحب :

هذا زمن الحب
لكن الحب بقريتنا
ما عادت نبضته تدق

وأنـا لا أريد أن استطـرد فى ذكر نماذج مـن هـذا اللون ، لكننـى أردت التأكيـد على أن الموسيقى ينبغى أن تكون جزءا من شواغل الشـاعر والناقد الفنى على السواء ، وأن مراعاتها شرط ضرورى لكى يتوقف الانحدار نحو النثرية الذى يهدد جمال القصيدة المعاصرة فى كثير من الأحايين .

وإذا كنا نشير إلى موسيقى الشعر فينبغى أن يظل الشعر فى إطار نمطه الموسيقى الفنى الخاص به وألا يحاول ــ كما يظهر فى بعض القصائد المعاصرة ــ تقليد إيقاع لون آخر من الكلام له نمط خاص ، وأنا أحيل القارئ هنا إلى مطلع قصيدة « فرار» :

والليل والعسس
والقيد إذ حبس
والصمت والطريق
ما عدت كالأمس البعيد
والسائرون السائرون
أولئك المعذبون
فى لجة المنون
عم يفتشون .

وواضح أن هذا النمط من الإيقاع يذكر بالقرآن الكريم، وقد شاعت هذه الطريقة لدى بعض شعرائنا الشبان ، ومن ثم أعتقد أن من الضرورى الإشارة إليها ، وأنا لا أريد أن أناقش هذه المسألة من ناحية دينية ، ولكن من ناحية تعبيرية بحتة ، وشعورى كقارئ للتراث العربى الإسلامى عندما أقرأ هذا اللون من الشعر، هو أن القصيدة تسىء إلى نفسها فضلا عن أنها تثير مشاعر قارئها ، فهى تلمس نغمة لا تستطيع أن تحسن الإمساك بها فضلا عن أن تستمر فى المحافظة عليها ، ثم إنها تحدث خلخلة فى وجدان سامعها الأدبى ـ فضلا عن أحاسيسه الأخرى ــ من حيث إنها لا تقدم اتساقا فى المستوى اللغوى الذى تقدمه إليه ، وهناك فارق ــ دون شك ـ بين هذا اللون ، وبين ما كان يشيع فى التراث من اقتباس بعض آيات القرآن ، فالاقتباس إحساس واضح بالفرق بين المستويات والفصل بينها ، أما تقليد الإيقاع فهو شىء آخر، أعتقد أن من حق الشاعر الجيد علينا ، إن نقول له أن البقاء فى مجال الإيقاع الشعرى وإجادته أفضل لنا وله .

إن هناك ظواهر كثيرة فى الديوان تتصل بالتراث الشعرى وتستغل كثيرا من إمكانياته استغلالا طيبا ، مثل ظاهرة التكرار التى كثيرا ما يلجأ إليها الشاعر هنا ، وفى بعض المرات عندما يجىء التكرار فى نهاية القصيدة يعطى إلى جانب الإيحاء المعنوى ، إيحاء موسيقيا بتردد نغمة الختام تمهيدا لإسدال الستار، كما هو الشأن فى ختام قصيدة «النورس والحلم الكسيح» ، لكن التكرار فى مواقف أخرى لا يتم التمهيد الشعورى الكافى له فيبدو وكأنه مجرد ترددية أو إطالة كما هو الشأن فى قصيدة «انتظار» وكذلك أيضا فى قصيدة «فرارا» .

إننى لا أريـد أن أشير إلى بعض أصـداء قراءات الشاعـر فى التراث والشعر المعـاصر والتى تتسرب بعض من إشعاعاتها داخل قصـائده ، ولا إلى بعض المواقف التعبيرية الأخرى التى يتنازل فيهـا الشاعر قليلا أو كثيرا عـن المستوى التصويرى الجيـد الذى عودنا عليـه خلال صفحات الديوان ، ويلجأ إلى التعبير المباشر وإسداء النصائح ، ولكننى أريد أن أقول إننى سعـدت بأن كنـت القـارئ الأول لهذه المجمـوعة الشعـريـة الجيـدة ، وسعدت بـأن هـذه المجموعـة كانـت من الغنـى بحيث اقتربـت بنا مـن كثير من الظـواهر الفنيـة فى القصيدة العربية المعاصرة .

البحث التاسع

فى القصيدة الحديثة
"مَن يتحدّث إلى[1] من؟"

صلاح والى

« ما الشعر ؟ » سؤال كان يبدو فى تاريخ النقد الأدبى القديم والوسيط قابلا للطرح والمناقشة ، وكانت الإجابة عنه تبدأ عادة بتحديد مجموعة القواعد الضرورية التى ينبغى توفرها فى القول الذى يطمح فى الانتساب إلى ذلك الجنس الأدبى الخالد. كانت أصول الوزن والقافية ــ ومازالت أكثر هذه القواعد طواعية للتحديد ، وأكثرها إغراء على إصدار الأحكام بأن ما بين أيدينا يمكن أن يدخل فى دائرة الشعر أو يخرج عنها ، ولكنها كانت فى الوقت ذاته تترك الباب يلف على عقبيه ، يمكن أن يغلق من حيث فتح ، فقد يستوفى الكلام شروط الوزن والقافية ثم يحكم عليه بأنه مجرد « نظم» أو يفتح من حيث أغلق فيطمح بعض الكلام إلى أن يدخل فى دائرة « الشعر المنثور» لوجود خصائص أخرى غير الوزن والقافية فيه ، ومع ذلك فقد ظل هذا الباب « المفتوح المغلق» أكثر أبواب الشعر إحكاما!

كانت هناك أبواب للخيال ، سواء ما يتصل منها بطبيعة الشعر أو بتراث اللغة التى ينتمى إليها ، ومن هذه الزاوية الأخيرة دخل فى تاريخ النقد العربى ما عرف « بعمود الشعر» حين قنن النقاد المسار العام الذى ألفه الشعر فى هذه اللغة ، والصور الجزئية التى جرى «غالبا» التعبير من خلالها ، واتخذوا من مجمل هذا بابا أضيف إلى باب الوزن والقافية لكى يصفى من خلاله ما يمكن أن يدخل فى إطار الشعر .

ومع أن « الخيال » كان يمكن التسرب منه دائما إلى الحديث عن « اللغة المصورة» باعتبارها أيضا من ملامح الشعر إلا أن تحديد « اللغة الشعرية» ظل من أصعب المهام التى يواجهها النقد الأدبى وظلت معرفة الخصائص التى تختلف فيها عن « اللغة النثرية» تحس

أكثر مما تحدد، وتعرف عن طريق السلب أكثر مما تعرف عن طريق الإيجاب[1] .

ولم تخل « الموضوعات الشعرية» من اهتمام النقاد عندما كان يراد تعريف الشعر، وقد يتمثل ذلك الاهتمام فى شكل صارم أحيانا كالذى اكتسبته طبيعة الموضوعات فى التراث المسرحى الشعرى عند الإغريق والرومان وامتداد ذلك إلى العصور الكلاسيكية ، حيث تبدو طبقة الأبطال محصورة فى الآلهة والنبلاء، وقد يتمثل ذلك فى « اتفاق ضمنى» يسير عليه الشعراء ويألفه الذوق، كالذى ساد فى كثير من الشعر العربى القديم بعامة والوسيط على نحو خاص من دورانه « خارج الذات» فى كثير من الأحايين، ومن صب اهتمامه على «طبقات معينة» أو «موضوعات معينة»، ولم يكن من السهل أن يتطور الشعر من خلال موضوعاته التى ألفها الذوق المتلقى (وهو عنصر هام سوف نعود إليه) ولقد احتاج الأمر فى الشعر الأوربى مثلا لكى تقوم ثورة كالثورة الرومانتيكية، يدخل الرعاة من خلالها إلى ساحة الشعر، أن تسبقها ثورة كالثورة الفرنسية يدخل الخبازون من خلالها إلى ساحة قصر فرساى .

ومع ذلك فإن الثورة ــ فى الموضوعات الشعرية ـ التى أحدثها العصر الرومانتيكى ، والتى وجدت صداها فى الشعر العربى فى فترة لاحقة . لم تلبث بدورها أن تآلفت مع الذوق العام لعدة أجيال ثم تجمدت، يقول رومان جاكوبسون : « إن قائمة الموضوعات الشعرية فى العصر الرومانتيكى كانت محددة، القمر، البحيرة، العندليب، « لقد حلمت بأننى أسير بين الأنقاض، وأنها تداعت من أمامى ومن خلفى، وانكشف الغبار عن أرواح إنسانية تسبح وتحترق . كأن عاشقا يبحث عن عشيقته بين القبور، ثم بدا لى قصر ذو نوافذ قوطية . هكذا كانت النوافذ الشعرية « قوطية»، واليوم كل النوافذ تصلح أن تكون شاعرية بدءا من واجهات المحال الكبرى، حتى زجاج المقاهى الريفية المغطى بالذباب»[2] .

إن الثورة التى حدثت فى « الموضوعات التقليدية» للقصيدة، وجعلتها تمتد إلى وصف الجيفة عند بودلير وملاحظات عابر السبيل عند العقاد، والمترو وقهوة الصباح وجريدته عند جاك بريفير ومن بعده نزار قبانى، وآلاف الموضوعات واللاموضوعات غير المتناهية فى

---

(١) لعل من أنصج المحاولات لمواجهة هذه القضية فى تاريخ « النقد الأدبى الحديث » ما قام به الناقد الفرنسى جون كوين فى كتابه Structur du Langage Poetique والذى ترجماه إلى العربية بعنوان « بناء لغة الشعر » وصدر فى طبعته الأولى ـ القاهرة ١٩٨٥ م ـ وصدرت طبعته الثالثة عن دار المعارف١٩٩٤ .

(٢) R. fakobson . Hut questıons Poetıque op. cit P.122

ديوان الشعـر الحديث والتـى تبلغ قمتها عنـد الداديين والتكعيبيين والسريـاليين ومدارس الاهتمام بالشكل الخاص، هذه الثورة أعطت للقصيدة الحديثة مجالا كبيرا للحركة فى الوقت الذى وضعتها فيه فى مأزق دقيق، ذلك أنه وقد تحطم السياج الخارجى الذى كان يمكن أن تكتسب القصيدة بمجرد الانتماء إليه « مسحة» من الشـاعرية، أصبح على كاتب القصيدة الحديثة أن «يشعر الموضوع الـذى اختاره، لأنه فى الأصل موضوع محايـد. يمكن أن يعالج من زوايا مختلفة شعرية وغير شعرية، وهو فى ذلك كله مطالب بقدر كبير من الحساسية فى دقة الاختيار ودقة التشعير وإحـداث اتصال مع ذوق المتلقى من خلال إثـارته بالعزف على نغمـة يألفهـا أو الإمساك بخيـوط دقيقة يقـوده من خـلالها إلى مجال آخر لم يـألفه ويشعـره بمناخة، إن فن القصيـدة هنا يمكن أن يقترب من فن «النكتة» وقد كان القـدماء يتحدثون عن الملمح الفنى الجيد فى التعبير على أنه نكتة بلاغية.

تروى النكتـة الواحدة مـن أشخاص عديـدين فتثير من أحـدهم الضحك ومـن الآخر الفتور وقد تثير الاشمئزاز من شخص لا يجيد تناول « موضوعها» فيفسدها، وهى فوق هذا كله تختلف حسـب « ذوق المتلقى» من مجتمع إلى مجتمع، فتعنى شيئـا خطيرا فى مجتمع ما، وباهتا فى مجتمع آخـر، وقد لاتعنى شيئا على الإطلاق فى مجتمع ثالـث، وكـل ذلك عندما ندخـل فى الاعتبار ـ ولابد أن نفعـل ذلك ـ الطرف الآخـر للفن، وهو المتلقى، وهـو طرف يحتاج مدى العناية به فى القصيدة العربية الحديثة إلى مزيد من الاهتمام.

إن وسائل تشعير الموضوع العادى ومدى التوفيق فيها تبدو متعددة فى الديوان الذى بين يـدينا، ولا يستطيـع القـارئ فى البدء أن يفلـت من أسر قصيـدة جيـدة لصلاح وإلى مثـل قصيدة « الجلوة الأخيرة»:

تمر القطارات ـ هابطة ـ فى أفول المغيب
وتجلو العصافير ـ صاعدة ـ فى الفضاء الرهيب
وتبقى الشجيرات ـ ثابتة ـ فى اهتزاز مهيب
وتسحب كوفية الحقل أطرافها لتدارى الذبول
وتدمع شمس النهار ـ لدى النظرات الأخيرة ـ فوق الحقول
ويعلو على كوكب الصمت قرع الطبول

ففى هـذا المقطع السداسى الـذى تتقاسمه قـافيتا الباء واللام السـاكنتان، ويسير على تفعيلـة المتقارب السريعـة الإيقاع، تقـدم لنـا الخيوط الأولى للصـورة فى لقطات تتعـارض ولكنها تتداخل، تمر عابرة ولكنها تبقى، وقـد اختارت القصيدة الفعل المضارع الذى تكرر

ست مـرات فى بدايـات الأبيات السنة لإعطـاء الإيحاء بثبات المشهـد وتكرره ، وفى المقـابل اختارت التعبير بالحال فى الأبيات الثلاثة الأولى (هابطة ـ صاعدة ـ ثابتة) ليعبر عن تغيرات تقابل الثوابـت ، وبد التوازن فى الحركة محكما بين الهبوط والصعود والثبات لـولا ما يبدو من إيهاء خفيـف بالتعـارض فى البيـت الثالـث بين الثبـات والاهتزاز ولـو حـل محله (وتبقـى الشجيرات ثابتة فى شموخ مهيب) مثلا ، لاتسق التوازن إلى مدى أبعد على أن موجة التوازن من خلال التقـابل تتوجها لمسـة أخرى فى خلال هذا المقطـع عندما تتنوع المصـادر الحسية للصورة ، فهناك الصـور البصرية بإيحاءاتها التى لا تحد وبمجموعة الألـوان التى يمكن أن تثار فى خلفيتها (القطار ـــ الأفول ـ العصافير ـ الفضاء ـ الشجيرات ـ الـذابلة ـ الشمس ـ النظرات ـ الحقول ؛ ثم بعد هذا كله تأتـى صورة تنتمى إلى مصدر حس آخر هو السمع : «ويعلـو على كوكـب الصمت قـرع الطبول » فتـوسع مـن دائرة الروافـد الحسية للصـورة ، بالإضافـة إلى أنها توسع من دائرة التصـوير ذاته عندمـا تترك دائرة الحس البصرى والسمعى التى عـرفت كيف تنهـل منها ، وتشارف دائرة التجـريد من بعـض الزوايا عنـدما تشير إلى «كوكب الصمت» .

مـن هذا المقطـع السداسـى السريع الإيقـاع تنتقـل القصيدة إلى مقطـع آخر تغير فيـه إيقاعها ، وذلك منهج يلجأ إليه الشاعر كثيرا فى هذا الديوان ، فيغير التفعيلة داخل مقاطع القصيدة الواحدة ، وأحيـانا يغيرها داخل أبيات المقطع الواحد ، وهـو تغيير يبدو فيه تحكم الشاعر فى التفعيلة وعـدم تحكمها فيه ، وهو ينتقل هنا من فعولـن ، إلى متفاعلن فى المقطع الثانى :

النهر آت إنه زمن يجىء
نزهو به ونعود من زمن الأفول
النهر آت إنه شرب الدماء من الصحارى
ومن الدموع الجاريات مصب نيل
وارتوى وقت الأصيل
النهر آت يا صبايا يا ملاح
النهر آت يا شيوخ يا شباب
النهر آت فارفعوا أصواتكم بالأغنيات
ومن الصباح إلى الصباح
وانقشوا أزهاركم

طفلا وطمئا ينتشى وقت المطول
النهر يطلى ضفتيه على المدى قمحا . . أصابعه نخيل

والانتقال لا يتم فقط على مستوى إيقاع التفعيلة الذى يهدأ، ولكنه يتم كذلك على مستوى وسائل التعبير والتصوير الأخرى، ومع اتباع النغمة الأولى التى تحافظ فى وقت واحد، على عناصر الثبات والتغير، وإذا كان المفتاح التعبيرى هناك هو « الفعل المضارع» الذى تكرر ست مرات، فإن المفتاح التعبيرى هنا، هو اسم الفاعل: « النهر آت »، الذى اتخذ شكل الإيقاع المتكرر، ومع أن المقطع هنا غير سداسى فإن كلمة « النهر » تكررت أيضا ست مرات فى هذا المقطع، مما يشير إلى وجود نمط نسقى متوازن بين المقطعين، وفى المقابل فإن اتجاه الحركة يختلف فى المقطع الثانى عنه فى المقطع الأول، وإذا تصورنا نقطة محورية يتم من خلالها رصد المشاهدفى المقطعين فإن صورة المقطع الثانى الرئيسية والمتكررة « النهر آت» تبدو وكأنها تتحرك إلى هذه النقطة وتتجه نحوها لتصب فيها، على حين كانت تبدو صور المقطع الأول وقد اتخذت اتجاها مقابلا، فهى تبدو وكأنها تتحرك من هذه النقطة وتبتعد عنها، فالقطارات تهبط، والعصافير تصعد والنهار يأفل وكل شىء يتحرك فى اتجاه الرحيل.

من يتحدث فى القصيدة إلى من ؟ إن هذا السؤال كان يبدو بسيطا فى القصيدة التقليدية حيث كانت شبكة الضمائر « أنا ونحن» أو « أنت وأنتم» أو «هو وهم» واضحة المعالم وضوحا نسبيا، وعندما يقول المتنبى:

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أو يقول :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

فإننا نستطيع أن نحدد فى المسح الأول مواقع الأشخاص على خريطة الحوار، وإن كان من الإنصاف أن يقال، إن استخدام الضمائر فى القصيدة التقليدية الجيدة لم يكن بهذه الدرجة من التبسيط، ولكنه كان مشبعا بإشعاعات متعددة الأضواء حول الإمكانيات الدلالية للضمائر ومدلولاتها فى اللغة، والذى يقرأ تأملات البلاغيين القدماء وعلماء اللغة من أمثال عبد القاهر الجرجانى وابن جنى، يجد نظرات دقيقة فى أسرار الاستخدام اللغوى، أعتقد أن من حق اللغة على شعرائها الجدد أن يلموا بها.

إن شبكة الضمائر غـدت أكثر تعقيـدا فى القصيدة الحديثة ، وأصبـح الشاعـر فى بعض الأحيان يختفى فى ظـل « الأنا» العام مؤديا دورا تعبيريـا يتفق مع تطور دور الفـن ، وأحيانا أخرى يركز على « الأنا» الخاص ، ولكنه تركيز يختلف عـن الدور الذى كانت تؤديه قصيدة الفخر التقليديـة ، فهو تركيز على النماذج لا على الفـرد ومحاولة للوصول إلى أقصـى درجات العموم من خلال تصوير دقائق الخصوص ، والحدود التى تفصل بين « أنا » و«نحن» تبدو فى كثير من الأحايين هشة وتبدو الحركة شديدة التداخل بين طرف وآخر .

تساءل النـاقد الفرنسـى جون كويـن عند حـديثه عن لغـة الشعر عن مـدلول الضمائر الشخصية فى القصيـدة ، وعن الفـرق فى الدلالـة بين اسم العلـم والضمير ويرى أنـه على العكـس من الاسـم الـذى يعنـى شخصا محددا ، فـإن « أنـا » يمكـن أن تنطبق على كـل شخص ، ولكى نرفع الغموض لابد أن نعرف مـن هو المرسل « للرسالة» وفى اللغة المتكلمة نحصل على هذه المعلومـة من خلال هذا الموقف ، فالمرسل هو الـذى يصدر عنه الصوت ، لكن القصيدة تكتب ، واللغـة تعد خارج الموقف . ومن هنا فإن « الـرسالة» ذاتها عليها أن تزودنا بالمعلومـة الضرورية . . . فالخطاب يحمل توقيعا ، وكتاب الترجمة الـذاتية يحمل اسم المؤلف ، وفى الـرواية المكتـوبة على لسان الشخـص الأول تشير « أنا » إلى ذات خيـالية دون شـك ولكنهـا ليست أقـل حضـورا وتميـزا داخـل السيـاق . . . فماذا يمكن أن يقـال عـن القصيدة . . . إن «ايتيين سوريو» يقترح إجـابة على السؤال عندما يقول « أنـا هى نحن» فى وقت واحد شاعر رئيسى ومطلق ، وأيضا صورة شاعـرية عن ذلك الشاعر يريد أن يقدمها للقارئ ، بل هى القارئ نفسه باعتباره قد دخل فى القصيدة إلى مكان قد أعد له لكى يسهم فى مشاعر قدمت إليه» [١] .

إن كل درجات التوحد والتآلف والانصهار والعزلة والموقف الخاص والاحتجاج والرفض يمكن أن تعالج فى القصيـدة الحديثة انطلاقا من محاولة الإمسـاك بشبكة الضمائر وتداخلها فى البناء الشعـرى ، وهو منهـج لواستطعنا أن نطـوره لكان أجـدى كثيرا من المقـولات التى تلبـس القصيـدة من خـارجهـا وتعـود إلى « دوجماطيقيـة» حـديثة تحت دعـاوى التحليـل الأيديولوجى المختلف المناحى .

إن البحث عن الضمير الثانى (المخاطـب) والضمير الثالث (الغائب) لا يقل أهمية فى البحث عن مواطن تردد أنفاس الشاعـر فى القصيدة ، وعن اتجاهات نمو الحركة بها ، وعن

---

(١) بناء لغة الشعر ـ تأليف جون كوين ، ترجمة د. أحمد درويش ـ القاهرة مكتبة الزهراء سنة ١٩٨٥ : ص ١٨٢ .

مدى تحقيقها لقدر مـن « الاتصال الفنى» لا غنى عنه لأى فن مهما كـانت درجة تجريده، وقد يكون تنبه الشـاعر نفسه، حتى فى لاوعيه، إلى ضرورة وجود مثـل هذا الهيكل العصبى فى أعماق القصيدة، عاصما له من كثير من ألوان التجديف والسباحة على غير هدى، وهى ظاهرة تقع فيهـا القصيدة الحديثة فى بعض الأحايين، وتكون رافدا رئيسيا مـن روافد ظاهرة الغموض ، وسببا لا ينكـر فى انقطاع دائرة الاتصال الفنى من خـلال شبكة الضمائر المثلثة الزوايا، والذى يحدث غـالبا عندما تنقطع أسباب الاتصـال بين الأطراف أن تظل القصيدة تدور حـول نفسها ترسل إشـارات غامضة لا ينجـح الكثيرون فى التقاطها، وقد تسـأم هى نفسها بعد حين ، فتـأوى إلى ركن منزو من أركان السـديم اللامتناهى وتقنـع بالحديث إلى نفسها و إلى جاراتها المنزويـات، وعندما يتكرر ذلك من منبع شعرى واحـد مرات متتالية، فإن الأحباط ربما يكون من أشد الأعداء التى تتربص بالشاعر حينئذ .

إن جزءا من أزمة قصيدة « الصدور من فيض العشق» فى هذا الديوان، يعود إلى الطريقة التى استخدمت بها الضمائر، وقد نتساءل : من يتحدث إلى من فى هذا المقطع ! :

واحد مكتمل
عاشق ذاته
وأنا ممكن للوجود
تفاعلت فى فقلت وحيدا
لماذا يكون الوجود بدد
تقاسمت فى ملكوت التملك نفسى
انشطرت
وصار المشابه منى
فصرت أنا واجبا للوجود
وصار الوجود أحد

ورغم أن النسخة الخطية التى قرأت فيها هذه القصيدة حرصت على التمييز بين التاءات المضمومة التـى تشير إلى المتكلم والتاءات المفتوحـة التى تشير إلى المخاطب فـإن تتبع مسار شبكة الضمائر قد يقود إلى خلـط خطير بين مقام الألوهية ومقام الشعر، وهـو خلط يمكن أن يعزى فى المقام الأول إلى التجـديف فى منطقة عاصفة دون التمهل الكـافى لنضوج شبكة التعبير اللغوى فى الذهن .

وقد يكـون من الاستطـراد الإشارة أيضـا إلى أن من حـظ هذه القصيـدة أنها وقعت على معجم تعبيرى وتصويرى ابتعد بها قليلا عن المستـوى الجيد الذى ظهر فى القصائد الأخرى وتمثل ذلك فى اللجوء إلى ما يمكن أن يسمى « بالنظم الفلسفى» :

أراقب فوضى نظام التفجر ثم التولد
والنفس من فرحها تبتهل
مد المواقف أجسام، أرقام، أشياء كل الهيولى ملك
فصار الفراغ حياة
وصار الفراغ فلك
تغير عاشرهم فى التفجر والعشق حتى القمر
أطل على الفلك المنتظر
هى الماء والترب والنار والريح
والفعل والمستقر

إن الموقف الفلسفى فى ذاته لا ينكر استخدامه فى الشعر، بـل إنه من أقرب المواقف قربا مـن روح الشعر، ولا أريـد أن أذكر هنـا بالـربط الشهير فى مـوقف الـدهشة المستمـرة بين الشعـراء والفلاسفـة والأطفـال ، لكن الـذى ألاحظه هنـا أن الموقـف الفلسفى استخـدم استخداما «نيئا» بمعنى أن الشاعر لم يعطـه فرصة « التشعيرو والنضج، والاختلاط باللحم والدم، حتى يصبح موقفه هو الخاص، وجزءا من روح فنه، لا غريبا عليه .

إن طريقـة الاستخدام هذه ، تكـررت مرة أخرى ــ على الأقل ــ عندما لجأ الشـاعر إلى مصطلحات علم النحو ليطفئ افتتـاحا شعريا جميلا فى قصيدة «من أين يـأتى البحر» لقد جاء الافتتاح على هذا النحو التصويرى المشع :

البحر شعر الأرض
تنثره الرياح على اضطراب
فى كل منعطف زبد
هل مرت السنوات بالأعمار
شاب؟

ولا تكاد نفـس المتلقى تدفـأ بهذه الافتتاحية المشعـة حتى يطفئهـا الشاعر بمقطـع تال ينتمى إلى مستـوى تعبيرى مختلف، ويندرج فى هذا النـوع من الاستخدام « النيـىء» الذى أشرنا إليه من قبل ، حين يقول :

زمن يسافر فى المدارات التى نقشت عليها
النون نون الجمع لم يبق سوى فرد الخواء

* * *

كان المضارع فاتحا كل الحروف على ضفاف

* * *

وأنا « أنيت » مضارعا
أبغى نويت مصارعا
لم يبق من تاء الأنوثة فوق كفيها
سوى نقش الخواتم فى أصابعها

إن لغة الشعر تقوم بعمل كيميائى تنصهر خلاله كل العناصر التى من حقها أن تستخدمها ، وهى عناصر غير متناهية ، فى بوتقة واحدة ومن شأنها أن تأخذ من خلال هذا الانصهار درجة جديدة للحرارة والمذاق والملمس خاصة بها ، وهذه الدرجة ليست هى درجة العناصر الأولية التى تكونت منها الصورة ، ولكنها أيضا ليست منفصلة عنها ، فإذا استطعت بعد أن تتكون السبيكة بين يديك أن تتعرف فيها على مصادرها الأولى وكأنها متفرقة كما كانت قبل الانصهار وقد تم فقط تشابكها ، فهناك قصور ما فى كيمياء الشعر .

إننا إذا عدنا مرة أخرى للقصيدة الجيدة « الجلوة الأخيرة» من وجهة نظر « الهيكل العصبى » للقصيدة ممثلا فى شبكة الضمائر ، فإننا سوف نجد اتساقا جيدا بين المقاطع المتتالية ، فالمقطع الأول يبدو مقطعا محايدا يخلو من أى انتماء إلى زوايا المثلث ، وهو يقدم جزئياته الممتدة من الطبيعة الصامتة والناطقة فى أكبر قدر من الرصد وأقل قدر من التعليق ، وهذا كله يجعل هذا المقطع كأنه لوحة معلقة فى الفضاء ، تهيىء نفس المتلقى للحركة فى الاتجاه الذى سوف تختاره القصيدة .

ثم يتعاقب ظهور الضمائر بترتيبها ، الضمير الأول ـ المتكلم ـ فالثانى ـ المخاطب ـ فالثالث ـ الغائب ـ وذلك فى المقطعين الثانى والثالث ، ففى بداية المقطع الثانى يظهر ذلك الصوت الذى يشد اللوحة المعلقة له ويجعلها تنتمى إليه :

(إنه زمن يجيئ به ونعود من زمان الأفول)

وهذا الضمير المتكلم نفسه والذى تختلط فيه الحدود بين « أنا» و«نحن» بين أزهو ونزهو

وأعود ونعود، هذا الضمير سوف يكمل دائرة الاتصال عندما يتولد عن حميا التفاعل فيه، الضمير الثالث، المخاطب :

يا شيوخ . . يا شباب : ارفعوا أصواتكم بالأغنيات

فتكتمل الدائرة الشعورية وتبدو وكأنها امتلكت عناصر الرضا والزهو جميعا، فالصورة الغنية للطبيعة والتى اتصلت بالحواس جميعا وجاوزتها إلى ما وراءها، واكبها امتزاج عناصر البشر ومن بينهم الشاعر واحدا من المتكلمين وواحدا من المخاطبين، ومن حول هذا كله تندفق المشاعر تدفق النهر .

غير أن نقطة التحول المفاجئة، تأتى عندما يطل ضمير الغائب فجأة برأسه ودون مقدمات، وحتى دون مرجع للضمير يستند إليه، وذلك فى المقطع الثالث الذى يعود مرة أخرى إلى سرعة إيقاع المقطع الأول (فعولن) :

هم الآن يستقطرون من القلب دمع الطفولة
يستحلبون من الشذى ماء الحياة
يجوسون فى الصدر بالقدم القاسية
يدقون حد الحدود فى الضفة الباقية وفوق الطلول
يقصون من باطن الأرض جذر الرجولة

* * *

فيصطك سمع الزمان وسمع المكان بقرع الطبول

إن هذا « الغائب» الذى جثم على هذا المقطع الأخير جاء ليطفئ بهجة الزهو التى تولدت فى المقطع السابق، وجاء ليقدم مشاعر مقابلة لما قدمه المقطع الثانى ، فهناك تسيطر مشاعر العطاء وتسيطر هنا فى المقابل مشاعر الامتصاص والأخذ (يستقطرون ـ يستحلبون ـ يقصون)، وإذا كان التعبير هنا قد آثر أن يعود إلى صيغة الفعل المضارع التى اختارها فى المقطع الأول (بدلا من اسم الفاعل فى المقطع الثانى) فإنه غاير فى المقطع الأول فى ملمح تعبيرى صغير ولكنه ذو دلالة هامة، لقد جاءت الأفعال المضارعة جميعا وقد خلت من الربط بينها (هم الآن يستقطرون ـــ يستحلبون ـــ يجوسون، يدقون . . . يقصون . . . إلخ) .

وهنا يكمن الفرق فى الانطباع بين اللوحة الأولى للطبيعة التى « تعطى» فى هدوء متواصل واطراد يتمثل فى تتابع الواو والفعل المضارع، والانطباع الذى يحدثه المقطع الثالث

فى هؤلاء الغـرباء إذ هم (الذيـن يمتصون كل شيء فى عجلـة ولهفة لا تسمح حتى بـوضع الحرف الفاصل بين الفعل والفعل)، فالأفعال تتوالى وكأنها خيط واحد ممتد من الحدث .

إن الصورة فى هذا المقطـع تنمو نموا دقيقا، والذى يتـأمل فى جزئياتها يـلاحظ أن هناك «هبوطا» مطردا . فالصورة تبدأ من العين نازلة إلى الثدى والصدر وبعدها إلى القدم ثم تهبط إلى باطـن الأرض والبحر والنهـر، وكل شـيء يهبط وينـزل ويتدنـى، وذلك الخط الهابـط يتناسب فى طبيعته مع المشاعر التى تهبط وتنكسر فى هذا المقطع، وهو فى الوقت ذاته يقابل الخط الصاعد الذى يمكن أن نتصوره فى المقطع الأول الذى يبدأ من صورة القطار، وتتلوها صـورة العصافير فـالأشجـار (ولو تـم عكس الترتيـب بين الأشجـار والعصافير لأعطـت الصورة قدرا أكبر من الاتساق) ثم ينتهى خط الصعود إلى الشمس .

إن هذا التقـابل والتداخـل والتعارض الذى يقـود فى النهايـة إلى الاتساق هو جـزء من طبيعة الفن الجيد، لأنه جزء من طبيعة الكون نفسه، وكما يقول أحد النقاد : فان (التناسق يولد من التناقـض والكون كل مركب من عناصر متضادة، والشعـر الحقيقى يدفع عناصر التضاد حتى تتولد منها عناصر التقارب)[1] .

شدت « تـداعيات العشـق» الشاعـر فى كثير من قصـائد الديـوان إلى محاور متقاربـة، وسيطر « الوطن» على كثير منها، وكادت بعض القصائد أن تبـدو إيقاعات متنوعة لمعزوفة واحدة، ومـن هذا المنطلق تبـدو القصائد الثـلاث الأولى، « الغرباء الجحيـم» و«اغتيال» و«آية من ديمومة العذاب» متقاربة المنبع متشابهة فى خطى التطور والتركيز على بقعة مضيئة فى عمـق الصورة ثـم تجاوزها إلى واقـع أقل تـآلفا والتريـث أمام لحظـات الانكسار وخيبـة الأمل، كل ذلك من خلال عرض تختلف درجة الشفـافية فيه، ومن ثم درجة التوصيل من قصيدة لأخـرى، ومن هذه الـزاوية تختلف هذه القصـائد فى مجملها عن قصـائد أخرى فى الديوان تبدو أكثـر استجابة لتطلعات شوق المتلقى للوصـول إلى أسرار العمل الفنى، مثل قصيدة « الجلوة الأخيرة» و«صفحات من أوراق عاشق» و«انتظار» .

ويرحل الشاعر عن اللحظة الحاضرة مختارا رموزه من الماضى فى مثل قصيدته المطولة عن « ابن ماجد ـ تداعيات العشق والغربة»، ولكنه يثبت عينيه دائما على الوطن الحاضر، ويقرأ همومه من مواقع زمانية مختلفة كما قرأها من قبل من مواقع مكانية مختلفة :

ما كنت صدقت الرواية

---

(1) Ibid P. 31. (١)

من يذبح الورد النضير على موائده
ذبح الورود جريمة ، والورد مسئول وقلبى غاضب
ودم تبرعم فى الخليج
ودم تبرعم فى الجليل
ودم تغرق فى البقاع
ومطاردا حتى النهايات البعيدة فى البحار

إن هذه الطريقة التى اتبعتها القصيدة فى الاعتماد على رموز التراث وإحيائها ورؤية الحاضر من خلالها، طريقة شاعت فى القصيدة الحديثة، ونجح بعض الشعراء فى إجادة البناء الفنى من خلالها، ولا يستطيع المرء هنا أن يمنع نفسه من الإشارة إلى اسم أمل دنقل وبعض قصائده مثل « البكاء بين زرقاء اليمامة» « من مذكرات المتنبى» و«مقتل كليب» . . . ولعل هذا النوع من التكنيك يحتاج إلى دقة بالغة فى مزج الحدث بالتعليق، وعدم السماح للتأمل والتعليق المجردين بالطغيان حتى لا يفقد المتلقى خيوط الربط التى ينبغى أن يستشعر رائحتها دائما خلال تقدمه فى متابعة هذا النوع من القصائد المطولة . .

كما تشد القصائد محاور معينة، فإن الشاعر يميل إلى صور بعينها، ويقترب منها دائما ويلف من حولها، ولاتكاد تغيب عن عين القارئ فى أى قصيدة من قصائد الديوان، صورة الماء فى « ألف باء الحجم» : زلزل الصدر بالموج، فى آية من ديمومة العذاب : وكان الرب يخرج من مياه النهر مغتسلا، فى الصدور من فيض العشق : تعاليت فوق العروش على الماء، وبعدها تأتى قصيدة من أين يأتى البحر، ومحور قصيدة الجلوة الأخيرة هو النهر ، ولا يختفى النهر من قصيدة المرايا : هو النهر يطرح طميا جديدا . . . تعود الجياد الأصيلة للبر من بحرها . . إلخ .

أما ابن ماجد فقصيدته كلها على سطح المحيط . . . إن صفحات الديوان من هذه الزاوية وحدها ـ تنديها المياه فى كل مكان !

لم أرد من خلال هذا الوقوف أمام بعض الظواهر والقصائد فى ديوان تداعيات العشق والغربة للشاعر صلاح والى، أن أنوب عن القارئ فى تذوقه ولكن أن أدعوه إلى مزيد من التأمل فى قصائده، وإلى ألا يأخذ القصيدة الحديثة عامة بما قد تولده القراءة الأولى من انطباع، وإلى أن يحس معى أن الشعر الجيد ـ وبين أيدينا فى هذا الديوان كثير من نماذجه ـ يستحق المعاناة فى قراءته حتى نصل إلى تذوق المتعة الفنية فيه . .

أقنعة الصّورة فى القصيدة الحديثة

فؤاد مغنم

« يبدو أن الأداة الـرئيسية لخلق عالم جـديد نحلم بـه ونحله محل العالم القديـم ، ليست شيئا آخر سوى ما يدعوه الشاعر بالصورة » .

أندريه بريتون

تظل الصورة هى عنصر العناصر فى الشعر، والمحك الأول الذى تعرف به جودة الشاعر وعمقه وأصالتـه ، أو يكتشف من خلالها نصيبه مـن الضحالة والتبعية ، ولكنهـا فى الوقت ذاته تظل سر الأسرار فى الشعـر ، تستعصى على القوانين الحادة الصارمـة « ويسهر الناس جراها ويختصـم» فى الوقت الذى تستسلم فيـه عناصر الشعر الأخرى للقوانين مبـدية قدرا أقل من المقـاومة ، فمن السهل أن تحكم على قصيـدة ما بأنها موزونة أو خـارجة على الوزن ومن السهل أن يحسم النزاع بالاحتكام إلى قوانين « العروض» السائدة ، حتى الذين يرفضون الاذعان لهذه القـوانين لا يستطيعون إنكار وجـودها ، وكذلك الأمـر بالنسبة للبنـاء اللغوى للقصيدة ، وخضـوعه لقـوانين صارمـة يصعب الجدل حـولها ويحسم الموقـف لصالـح من يتمسك بها حتى ولو كان نحويا بسيطا مثل عبد الله بن إسحاق الحضرمى فى مواجهة شاعر كبير مثل الفرزدق فى قصة المشادة المشهورة بينهما حول أخطاء الفرزدق النحوية فى الشعر.

لكن جريان الصورة يظل أكثر استعصاء على صرامة المجرى المحدد أو القانون الثابت ، ويظل الحكـم بالخطأ أو الصواب فيـه دقيقا ، وباب النقـاش متسعا ، وحتى عندمـا يصل واحـد كأبـى تمام فى بناء « صـوره» إلى حافـة الخروج عن المألـوف . لا يملك واحـد كابـن الأعرابـى أن يقول لـه : « إن هذا شعـر باطل » ولكنـه يقول : « إن كـان هذا شعـرا فكلام

العرب بـاطل» وهـى عبارة ذات دلالة قـوية فيما نحـن بصدد الحديث عنـه ، من صعـوبة المواجهة الصارمة للصـورة والحكم عليها بالإلغاء أو الإبقاء ، لأنه حكـم على جوهر الشعر نفسه بجرة قلم أو لفظة لسان ، وفن الشعر أكثر صلابة من أن يعامل على ذلك النحو .

كانـت الصورة كذلك محك التجـديد أو الركـود ، التقليدية أو الحداثة ، ولم يكـن الوزن العروضى هـو المحك على عكس ما يشيـع بين بعض المهتمين بالشعر نقـادا أو قراء ، وآية ذلك أن واحدا كأبى العتاهيـة عرف عنه الولع بالتجديد فى الوزن العروضـى وصياغة أغانى الملاحين فى دجلـة على أوزان مبتكـرة وكتـابـة مقطوعـات فى أوزان غير شـائعـة ، وقـولتـه المشهورة : «أنا أكبر من العروض» عندما كان يجابـه بالخروج عليه ، ومع هذا كله فلم يدرج أبو العتاهيـة فى صفوف « المحدثين» فى عصره شأنـه فى ذلك شأن كثير من الشعـراء الذين مالـوا إلى استخدام الأوزان المقلوبة والتنـويعات الموسيقية فى عصره ، وإنما الـذى نسب إلى الحداثة « شاعر كأبى تمام» لم يعرف عنه الخروج على قوانين الوزن مرة واحدة ولا التجديد فى إطارهـا ، ولا كان الفـرق بينه وبين البحترى عند مـن يقارنـون بين « القديـم والحديث» أن أحدهما يكتـب على طريقـة تقليديـة فى « الوزن الشعـرى» والآخر يخرج عليهـا ، وإنما كان الفرق أن أحدهما ينسج « الصـورة» الشعرية على نسق مألوف والآخـر يخرج عليها ، وموازنة الآمدى الشهيرة بين الشاعرين قائمة فى جوهرها على ذلك المبدأ .

بل إن قانون « عمود الشعـر» الذى ساد فى الدراسات النقدية القديمـة لم يكن فى الواقع إلا تأكيدا لذلك التصور من زاوية أكثر اتسـاعا ومحاولة لجمع خصائص القصيدة التقليدية فى « صورتها» العامة التى ينبغى أن تبنى عليها وتتوالى أجزاؤها من خلالها ، ثم فى « الصورة» الجزئية التى ينبغى أن تبنى على نمط معين فى « شرف التشبيه وتناسب الأجزاء» ومن هنا فإن « الشعر العمـودى» كان هـو الملتزم بقـانون « الصـورة التقليديـة» وليس بقـانون « الـوزن» التقليدى كما يشيع خطأ بين بعض المهتمين بالشعر الآن .

هذه النظرة ينبغـى أن تكون من بين أدلتنا فى تحديد مفهـوم « الحداثة» فى القصيدة ، وأن تأخـذ مكانها ـ على الأقـل ـ إلى جوار مبدأ شعـر التفعيلة أو البيت ، أو شعـر « الشطر أو السطـر» وهو المبـدأ الذى شـاع استخـدامه وحـده فى التصنيـف الشعرى بـدءا من نهايـة الأربعينات واختلطت بسببه كثير من القضايا بين مـا يسمى بالشعر الحر والشعر التقليدى وهو تقسيم ظل يسلب مزايا من أنـاس فى كلتا الطائفتين هى لهم ، ويعطى مزايا لأناس فى الطائفتين لا يستحقونها .

على أن الاهتمام بمعيار « الصورة» فى تحديد مبدأ الحداثة ، قد يقتضى اهتماما أكبر بدورها وعلاقتها بجوهر الشعر ، واهتماما بجوهر الشعر ذاته وعلاقته بالحياة ، والاستفادة مما اكتشف فى الآداب الأخرى خلال القرنين الماضيين من أهمية « الصورة» و«الشعر» معا ومن قيام مذاهب أدبية كاملة مثل : « الرمزية» و«البرناسية والسريالية» على فكرة الصورة وطريقة بنائها ، وخطورة دورها ، والعبارة التى اقتبسناها من أندريه بريتون رائد المذهب السيريالى فى فرنسا واحدة من العبارات التى تشير إلى خطورة دور الصورة المتعاظم فى الفكر البشرى ، وهو نفسه الذى يقول فى ميثاق السريالية :

« فى بعض الصور، توجد الشرارة الأولى لزلزال أرضى قادم ، أو فلنقل لزلزال فى النفس البشرية ، وبعض الأرواح التى يصيبها هذا الزلزال إصابة حقيقية ، تستطيع أن تنقله إلى آلاف الأرواح الأخرى : « وهو يرى كذلك أن الصورة هى أداة تحرير الوعى وتحرير الجماعات ، وأنها الهوة الرئيسية التى تفصل بين الشعر والنثر»[1] .

والشاعر الحق ــ كما يقول جوبير ـ هو الذى تمتلئ نفسه بالصور الواضحة على حين أن نفوسنا لا توجد فيها الصور إلا متفرقة وغامضة وهو، يستلهم هذه الصور أكثر مما يستلهم الأشياء ذاتها .

إن هذه العبارة الأخيرة تقترب بنا من خاصية محورية تنطلق منها وتدور حولها كثير من قصائد الديوان الذى بين أيدينا وهى الإعتماد على الصورة فى أقنعتها المختلفة ، التى تأخذ أحيانا شكل اللقطة العابرة وأحيانا شكل الموقف الواحد ، أو شكل الضفائر المتوازية والمتعارضة والتى تكون فى مجملها موقفا ما ، أو شكل القصيدة الكاملة التى تجنح إلى الصورة فتنجو بها من مزالق التعبير المباشر، وإن كانت لا تنجو بها من كل مزالق هذا التعبير كما سنرى .

ومنذ اللقطة الأولى فى الديوان تأتى « الديباجة» صورة سريعة معبرة ، أكاد أقول عن كثير من خصائص الديوان ، وإذا كان ت . دى ويزرا يقول : «إن كل صورة شعرية هى كون مصغر للكون» فإن الديباجة التى تتصدر هذا الديوان تحمل كثيرا من سمات مايتلوها :

تعفر الرياح ذقن الليل أو تبيت فى القبو
طريقنا معا

Voir. Gabriel: La Poesie Çorps et am P. 217 paris 1973.(١)

وبيتنا نهاية الممر
مسافران فى تزاحم الحروف
ضيق هذا الطريق يا صاحبى
وشمعتى لا تلعن الظلام لحظة ولا تموت
معا معا
لكننا لا نتقن السفر

وإذا كان الإيحاء العام الذى تتركه هذه الديباجة هو المزيج من التماسك والإصرار وخيبة الأمل، فإن اللجوء إلى تحقيق ذلك الانطباع يتم من خلال رسم هذه الصورة الموازية، للرياح المواتية أو المعاكسة والطريق الممتد، والهدف الكامن فى نهايته (وهو عنصر الإيجاب المحرك الذى يحدث توازنا مع عناصر السلب التى يزدحم بها المقطع) ثم الزحام والضيق وضعف الشموع وعدم إمكان السفر (وهى عناصر سلب متكاتفة لا يفصل بينها إلا السطر قبل الأخير « معا معا» وتتعادل بدورها مع عنصر الإيجاب السابق) .

إن اللجوء واضح هنا إلى « الفكر بالصورة» منذ البدء وترك الانطباع الموازى يتكون وحده، دون تدخل مباشر من الشاعر، وتلك سمة جيدة من سمات الشعر، يحرص عليها الشاعر فى كثير من قصائده، لكن يشوبها أحيانا فكرة الخلط بين الصورة الأصلية، والصورة الموازية، فعندما يتأمل القارئ مسيرة الصورة فى هذا المقطع يجد أنها مسيرة غير تجريدية يتحرك فيها الريح والليل والقبو والطريق والممر، ثم يفاجأ خلال هذه المسيرة بالبيت الذى يقول :

مسافران فى تزاحم الحروف

فيقدم له صورة مجردة وسط مجموعة من الصور المحسوسة ، والشاعر من خلال ذلك يشف عن هدفه الأساسى ، وعن الانطباع الموازى الذى يريد أن يتركه، لكنه تعجل الإشفاف عن ذلك الانطباع، وخلط بين الانطباع الأول والانطباع الموازى فأحدث ثقبا فى الجدار الرقيق الزجاجى ، الذى ينبغى أن يشف دون أن يثقب لئلا تتسرب منه الرياح فتبعثر ريش الصورة الذى يساعدها على التحليق ، والذى جمعه الشاعر فى أناة وحرص.

إن قناع الصور المتجاورة المؤدية إلى هدف انطباعى واحد ربما يتمثل فى القصيدة التى تحمل عنوان: « وفى صدرنا تبعث الأسئلة» وهو عنوان قد تدعو صيغته إلى طرح بعض التساؤلات حول فكرة « العنوان» فى القصيدة الحديثة، ولا ينبغى أن ننسى أن العنوان سمة

من سمات القصيدة الحديثة ـ على الأقل فى أدبنا العربى ـ فلم يكن الشاعر القديم يهتم بأن يضع عنوانا معينا لا لديوانه ولا لقصيدته، وإنما يكتفى الديوان بأن يحمل اسم الشاعر وتكتفى القصيدة بأن تحمل اسم المناسبة التى قيلت فيها أو الفن الشعرى الذى تنتمى إليه من غزل أو وصف أو عتاب، وقد تشتهر القصيدة بقافيتها فيشار إلى سينية البحترى أو تائيه ابن الفارض أو لامية العرب . . . إلخ لكن القصيدة الحديثة ألفت أن تحمل عنوانا مثل « الأطلال» أو «أحلام الفارس القديم» أو «مرثية لاعب سيرك» أو «وفى صدرنا تبعث الأسئلة» وهى عناوين تستدعى أن تثار التساؤلات حولها من جديد . . ما مهمة العنوان؟ . . هل يلخص القصيدة؟ يشير إلى نقطة الإيحاء الرئيسية؟ ما الصيغة اللغوية المناسبة للعنوان؟ أن يكون كلمة مفردة . . أو أن يكون جملة ناقصة تبعث من التساؤلات أكثر مما تعطى من الإجابات، أو أن تكون جملة تامة مثل عنوان القصيدة التى معنا « وفى صدرنا تبعث الأسئلة»، وحين تكون جملة تامة هل يحسن أن توجد فيها هذه « الواو المعلقة» فى بدايتها أو لا توجد ؟ كل هذه تساؤلات ينبغى أن تثار حول فكرة العنوان فى « الديوان» أو «القصيدة الحديثة» باعتبارها تقليدا جديدا فى القصيدة العربية ينبغى ألا يترك للنمو البرى وحده وإنما تتعهده التساؤلات بالضبط والإحكام .

فإذا ما انتقلنا إلى القصيدة ذاتها وجدناها تتكون من أربعة مقاطع متفاوتة فى الطول لا يزيد المقطع الأول منها عن سطرين فى حين يحتل المقطع الثانى أربعين سطرا، ويكاد يتساوى المقطعان الأخيران فى الطول ١٢ سطرا لأحدهما و١٣ للآخر، وإلى جانب هذا التقسيم الكمى للمقاطع توجد ظواهر شكلية أخرى مثل ظاهرة الكتابة بين الأقواس والجمل المعترضة والنقط التى تحل محل الكلام فى كلمة أو سطر أو أكثر، وهى كلها ظواهر تشيع فى القصيدة الحديثة، وتنمو نموا بريا دون أن تجد القدر الكافى من مناقشة النقاد لها .

ولنشر فى البدء إشارة عابرة إلى أن هذه السمات التى لم تكن موجودة فى القصيدة القديمة وعرفتها القصيدة الحديثة تشير إلى تغير جذرى تعيشه القصيدة العربية المعاصرة، ويتمثل ذلك فى تحولها من قصيدة مسموعة إلى قصيدة مقروءة ووجود تحور ضرورى فى بنائها تبعا لهذا التحول ، لقد بنت القصيدة العربية عناصرها الأساسية الأولى سواء فى ذلك عناصر الإيقاع أو التصوير أو درجات الوضوح ، على أساس أنها عمل تتلقاه الأذن قبل العين وربما دون العين، ومن هنا فقد وضعت كل الثقل فى العناصر الصوتية، وجعلت الإنشاد مكملا للإنشاء فى الشعر وجرى اتفاق غير مكتوب على الالتزام بدرجة معينة من الوضوح أو الغموض، ولعب الترادف دوره وصيغت كثير من أنماط الأسلوب وقواعده تلبية لتلك

الخاصية، لكن القصيدة الحديثة تحولت إلى قصيدة « تقرأ على انفراد» بعد أن كانت « تسمع فى جماعة» وأصبحت تخاطب العين قبل الأذن وربما دون الأذن ، ومن هنا فقد خفتت فيها كثير من عناصر الصوت ونشطت كثير من عناصر « الخط المكتوب» وتركز الاهتمام على علامات الترقيم (التى تلعب دورا هاما فى القصيدة الأوربية منذ فترة طويلة) وأصبح بعض الشعراء يميلون إلى أن ينشروا قصائدهم وقد كتبت بخطوطهم لكى تحمل معها البصمات التى يراد توصيلها إلى « القارئ المنفرد» لا إلى « المستمع فى جماعة» .

انطلاقا من هذه الظاهرة تأتى الظواهر الأخرى، والتى يلاحظ أن بعض الشعراء يسرفون فى استخدامها دون وعى كاف بخصائصها، وخطورتها أحيانا على البناء الشعرى ـ ولعلى أشير عابرا إلى طريقة بعض الشعراء فى كتابة القصيدة الحديثة فى شكل أسطر كاملة تمتد من بداية الصفحة إلى نهايتها عرضا ومن أعلاها إلى أسفلها طولا على طريقة النثر، وهى سمة فى الكتاب تفقد الألفة بين العين والشعر، وتجعل أداة الاستقبال الإدراكية تتلقى العمل من نافذة غير التى تعودت أن تتلقى منها الشعر .

ما معنى أن تقسم المقاطع فى قصيدة ما هذا التقسيم المتفاوت، وهل يمكن أن تحمل الفقرة الأولى :

« هل الأرض يسكنها الناس أم تسكن الأرض أجسادهم؟ »

محاطة بالأقواس ، منتهية بعلامات الترقيم مفصولا بينها وبين ما يليها بنجيمات، هل يمكن أن يمثل المقطع على هذا النحو مفتاحا للقصيدة يلقى بين يدى قارئها، لتتطور القصيدة من خلال صورها إليه ؟

فإذا انتقلت القصيدة إلى صلب مقاطعها الأساسية فإنها تختار فكرة النمو الدقيق بواحدة من الصور وتتبع خصائصها ووقائعها قبل أن تفرغ منها إلى غيرها :

محطمة كل أكوابنا
ذبحت بيننا السنوات . . وما أفرغت جعبة الأسئلة
محطمة كل أكوابنا
والمناظر محتشدات بماذا وأين ومن
معلقة فى المدى
تتزاحم عند الحلوق المريرة
وترقد فى النظرات الكسيرة

مشرعة للطريق أسنتها الدموية
ناشبة فى العيون أظافرها
تجلد الرأس بالولولة
وغارسة نصلها فى الضلوع
فأين المفر

إن هذه العلاقة الحميمة بين جزئيات المنضدة والكأس والحلق والانكسار والأسنة والأظافر والنصل تؤدى بالصورة كلها إلى مسار نفس واحد وتحمل وراءها طول نفس وقدرة على تتبع الجزئيات وهما من سمات الشاعر الجيد، لكن التساؤل الذى يطرح نفسه بعد قراءة الصورة الجيدة دائما هو أى المنهجين يعطى إمتاعا فنيا أكثر: أن يقفز الشاعر من صورة جزئية إلى أخرى تختلف عنها ولكنها تتوازى معها لكى تقدم الصور فى النهاية شعورا متجانسا . . أم أن يثابر الشاعر على صورة واحدة جيدة فيتوسع فى أطرافها ويشحنها من كل زواياها حتى تستوى جسدا حيا يقول ما يريده الشاعر، ويقف عند نهايتها حتى ولو جاءت القصيدة قصيرة؟ إن القصيدة القصيرة فى ذاتها أصبحت نمطا يستريح إليه القارئ المعاصر ووجبة سريعة مؤثرة، ولابد هنا أن أشير إلى الشاعرين عبد العليم القبانى ونصار عبد الله باعتبارهما من صانعى القصائد القصيرة الجيدة، يلتقيان فى هذه الخاصية وقد يختلفان كثيرا أو قليلا فى غيرها، وأشير أيضا إلى بعض قصائد هذا الديوان مثل قصيدة «ليليات» والتى تدور حول فكرة واحدة مؤثرة، وصور قصيرة معبرة عنها، تعطى للمتلقى جرعة شعرية خفيفة ومركزة فى وقت واحد، وتقدم له قناعا مختلفا من أقنعة الصور الشعرية .

إن الصورة المحورية فى هذه القصيدة القصيرة تتمثل فى « الصمت» رمز التحرر من تأثير « الخارج» على « الذات» وترك النفس الشاعرة وحدها فى لحظة زمنية تختلف أبعادها ومقاييسها عن اللحظة الزمنية الخارجية التى تشترك مع الآخرين فى حيواتهم، وتخضع لمقاييسهم ولحظة الصمت تتخذ إطارها المناسب فى الليل رمزا لهدوء السكينة . لكنها لحظة لا تهبط وحدها بل ولا تلحظ وحدها، لأنها كامنة فى فرجة صغيرة من فرج الليل . وهى أيضا تستجلب من خلال « دس غبش الذكريات» بها، وعندئذ تنجح المحاولة الإرادية فى إحداث لون من التوازن بين مفهوم الزمن الخارجى ومفهوم الزمن الداخلى حين تقف اللحظات على شرفة الليل كى تسترد هويتها المهملة، وهذه الهوية المهملة هى فى الوقت ذاته مفتاح الموقف الداعى للتأمل وطرف الدائرة التى يبدأ منها التحرك وينتهى إليها :

أديمت لنا فرجة الليل
حين ندس بها غبش الذكريات
وينفرط العقد فوق الوسائد
نخرج أحشاءها
ثم نجترها لحظة . . . لحظة
نوقف اللحظات على شرفة الليل
كى تسترد هويتها المهملة

على هذا النحو تبدو « الصورة » هنا دائرة رشيقة ذات وسط تسبقه بداية معللة ودافعة ونهاية تسعى إليها الجزئيات ، لكن تحرك الصورة داخل هذه الدائرة قد يعطل منه قليلا عنصران لغويان يمكن أن يلاحظا على الصورة .

أولهما : البدء بالفعل المبنى للمجهول ، والثقل الخفيف الذى يلاحظ من تتابع الضم والكسر، وهو ثقل لا يمتد إلى التشكيك فى الصيغة وصحتها البنائية ، لكنه يعطل قليلا مجرى النغم خاصة أنه يتكرر كذلك فى صدر المقطع الثانى من القصيدة ، ولو ان صيغة المبنى للمعلوم « تدوم لنا فرجة الليل » حلت محل المبنى للمجهول« أديمت لنا » لتقدمت خطى النغم بمعدل أسرع .

ثانى العنصرين يكمن فى الصورة الجزئية :
وينفرط العقد فوق الوسائد
نخرج أحشاءها ثم نجترها لحظة . . . لحظة

فالقسم الأول من الصورة بما فيه من انفراط العقد فوق الوسادة يوحى بالاستسلام والمتعة ، على حين أن القسم الثانى « نخرج أحشاءها» لا يخلو من وحشية تترك ظلالها على سمة الهدوء الذى يسود الصورة الكلية على وجه العموم .

أما الصورة الثانية التى تكتمل بها القصيدة ، فهى تنطلق من أفق الصورة وتكملها ، وإذا كانت نقطة انطلاق الصورة الأولى هى : « الليل» وهى صورة بصرية فى عمومها ، فإن نقطة انطلاق الصورة الثانية كانت « الصمت» وهى صورة سمعية فى عمومها ، ومن خلال اختلاف مصدر الصورة تكتمل الدائرة ، ويستطيع الشاعر أن يتقدم من التهويم إلى التحديد ومن التعميم إلى التخصيص ، ومن التجريد إلى التجسيد ، ومن خلال الاعتماد على التزاوج بين ضمير المفرد المتكلم ، أو ضمير الجماعة المتكلمة ، ثم بين لحظة الحاضر،

ولحظة الماضى الاسطورية ينتهى به المطاف إلى « الغد» . . وينتهى به الحلم الهادئ إلى التفكير فى المقصلة :

أديمت لنا روعة الصمت
ياروعة الصمت
حين تجيئين محلولة الشعر
متخمة بالرجاء
ومشرقة بالأساطير يا شهرزاد
تدسين ما علمتك القوارير فى رأسيَ المستعيذ من الكلمات
وتستدفئين بما يتفصد عن جلدنا خلسة . . خلسة
وأنا أشحذ السيف
كى أتلاقى مع الغد فى المقصلة

إن القصيدة من خلال هاتين الصورتين يكتمل بناؤها الصغير، ويتاح لها خلاله أن تتحرك فى دائرة تغطى منابعها الحواس الرئيسية ، وتتحرك من خلالها من لحظة الحلم إلى لحظة الفعل، ومن بؤرة الحاضر إلى آفاق الماضى والمستقبل، ومن همس الفرد إلى إحساس الجماعة، وكل ذلك يتم من خلال واحد من أقنعة الصورة يمكن أن تسمى بالصورة القصيرة .

ولقد برع كثير من كبار الشعراء العالميين فى هذا اللون وربما كان على رأسهم الشاعر الفرنسى المعاصر جاك بريفير والذى يشتمل ديوانه « كلمات» على عشرات القصائد القصيرة الرائعة .

* * *

ربما كانت قصيدة « فصول من كتاب الليل» القصيدة التى يحمل الديوان عنوانها تمثل نهجا مقابلا، أو قناعا آخر من أقنعة الصورة يختلف عن القصيدة القصيرة فهى قصيدة طويلة، ولقد حاول الشاعر أن يجعلها قصيدة « مضفورة» على مستوى الإيقاع والصورة والإحساس . وإن كانت الأطراف المختلفة تلتقى فى نهاية المطاف لكى تعبر عن وحشة الشاعر بين « الانفراد والتزاوج» لقد زاوج الشاعر فى الإيقاع بين تفعيلة الرمل وتفعيلة الرجز وتفعيلة المتدارك أو الخبب وجعل لكل مقطع إيقاعا خاصا به ، وهو بذلك أعطى مبررا شكليا لتقسيم القصيدة إلى مقاطع ثم حاول خلال رحلة نمو القصيدة أن يجعل محورها وهو

« الوحشـة» ثابتا ويطرق عليـه من زوايا متعـددة، يأتيه مـن زاوية التفرد فيقوده إلى طـريق مسدود، ويعـود إليه مـن خلال التـزاوج فلا يجد إلا نفـس المذاق، وهو يحاول مـن خلال اللجـوء إلى الترقيم والعنـاوين الـداخلية أن يجعـل مساق القصيـدة مترابطا، ولا شـك أن الترابط حين يـوجد إنما تكتسبـه القصيدة مـن ترابـط الأنسجة الـداخلية لا مـن عناوينهـا وأرقامها الخارجية، وهى واحدة من سمات القصيدة المقروءة التى أشرنا إليها، والتى ينبغى أن يكون التحرك على طريقها بخطى محسوبة.

إن الشاعر يستهل قصيدته من خلال « مفتتح» يسوقه من خلال تفعيلة الرمل الهادئة:

قيل من مات استراح
كل يوم يحتوينى الموت فى ثوب جديد
أنثنى فى الليل أرشو خازن الدود
وأبتاع الوجود
لا الردى مل . . ولا قلبى استراح

وهو « مفتتح» دائرى يبدأ بالقول الشائع البسيـط، ويختار أيضا «البناء للمجهول» بداية للنغم، لكن حرف المد فى الفعل الأجوف يجعـل مسيرة النغم طبيعية هذه المرة، ثم يلخص المفتتح الصراع الدائر بين الثابت والمتغير، «الزمن» الذى يتمثل فى ديمومة « كل يوم» والفرد الذى ينشـد الراحة أو الخلـود، ويختار الشاعر « الليـل» ميدانا للصراع، وهـو ميدان أثير لدى الشاعر، كما رأينا فى القصيدة السابقة، ثم ينتهى الصراع، قبل أن تبدأ القصيدة، إلى النتيجـة التى بـدأ بها: « لا الردى مـل . . ولا قلبى استراح» هـذا المفتتح يقـابله فى نهايـة القصيدة « مختتم» ينتمـى إلى تفعيلة الرجز السريعة الإيقاع يتـم دورة زمنية صغيرة يختتم بها الليل « ميدان الصراع والتـأمل» ويستقبل الصبح لحظة الصحوة والعـودة لكنه يكتشف أن قصته دائريـة وأن النقطة التـى بدأ منها عـاد إليها، وأن قصيـدته مثـل دوائر الشعر ودوائر الزمن تعـود دائما من حيث بدأت، لكنهـا تحقق المتعة بين طرفى البـدء والختام وإن لم تحقق الفائدة أو النتيجة الحاسمة التى ليست دائما من أهداف الشعر المباشرة:

معذرة يا أصدقاء
فالصبح جاء
وقصتى لما تزل مجهولة الهوية
وقلبى المشقوق ما يزال مفعما بالأبجدية

لكننى كرهت أن أملكم
وأن أبيعكم ما ليس تشترون .

إن مقطعى المفتتح والختام يضمان بينهما تسعـة مقاطع مرقمة ومعنويـة ، وهى فى تحركها كما قلت تشير إلى هـذا القناع من أقنعـة الصورة الذى يسمى بـالصورة المضفورة ، فـالمقطع الأول والذى يحمل عنوان « وفاء » يعطى الانطباع بـالتزاوج الإيجابى لكنه يسلب جانبا كبيرا من إيجابية هذا التزاوج حين يجعله تزاوجا مع « الحزن » .

وباختصار
وجدتنى كظله الوريف
وعندما ينام سيدى ـ الحزن ـ
أغربل الهواء فوق وجهه الشريف

على حين يحمل المقطع الثـانى والذى يحمل عنوان « حـالة » موقف « انفـراد » يتضاد مع طبيعة موقف المقطع السابق . ولكنه أيضا ينتهـى إلى نفس النتيجة وهى الاحساس بالوحدة والوحشة .

تفلت من قبضة ذاكرتى كل الأوراق
فالهث . . . الهث
اتعثر بكتاب العمر . فينكسر المصباح

وفى الوقـت الذى يحاول المقطع الثـالث فيه أن يعود إلى نغمـة « التزاوج » فانـه يضعنا فى تزاوج كاذب ، يخلع مشاعره على عنوان المقطع ، أو تزاوج « كابوس » ترسم دقائقه من خلال الصورة الموفقـة للعملاق القاتل الـذى يتزاوج مع ضحيتـه المعلقة بين يديه ، فتكـون لحظة الانفصال عنه خلاصا ، وحين يتم فى المقطع الرابع « كبرياء » نوع من التصالح فإنه يتـم هذه المرة « على البعد » :

كنت أجلس فى زاوية
مر مختبئا (ستر الليل أفعاله)
وانثنى فى الطريق

وهكذا فان هـذا المقطع يشكل ضفيرة مع المقطـع السابق عليه . الأول يـؤدى إلى التنافر من خلال التزاوج ، والثانى يؤدى إلى التصالـح من خلال التباعد ، وحين تعرض القصيدة كثيرا من إمكانيات الواقع متزاوجة أو منفردة وتسلمنا جميعا إلى نتيجة واحدة تلجأ القصيدة

مرة أخرى إلى الحلم مقابل الواقع لكى يشكل بدوره ضفيرة مع ذلك الواقع فى صوره المختلفة، ومن ثم تجعل المقطع الخامس من القصيدة يحمل عنوان « حلم» لكى يبحث من خلال الصور الجزئية لهذا المقطع عن تحقيق ما عجزت ضفائر الصور الماضية عن تحقيقه، لكنه ينتهى إلى نتيجة مشابهة .

انزلق الغطاء
وانغرست مخالب الصقيع حتى أعظمى
انتبهت
وجدتنى أعض فى أصابعى
وبقعة فوق الوسادة
وكان لونها يشابه الدماء

ومن اللافت للنظر أن المقطع الوحيد الذى تغلب عليه سمة الإيجاب فى القصيدة، وهو المقطع السادس الذى يحمل عنوان « بعث» هذا المقطع هو أقصر مقاطع القصيدة على الإطلاق، ويكاد يكون لمحة خاطفة إذا قيس بالمقاطع الأخرى :

رفرف قلبى ذات مساء فبكيت
سقطت أسراب الظلمة فى الظلمة
وانفلت القمر يلملم جثته
يتخلق
وأضاء قليلا . . فعشقت

إن لمحة الإيجاب سوف تتطور فى المقطعين التاليين « معا معا» و «مغامرة» لكن تتشكل فى أولهما من خلال التزاوج وفى الثانى من خلال التفرد، لكن نغمة التشاؤم التى تسود القصيدة، تعود فتلقى بظلالها على المقطع الأخير لكى تطرح التساؤل من جديد؟

وكنت مثلهم أسير. . والطريق
يلفنى . . يعصرنى
يدوسنى الطوفان
لكننى مهاجرا كنت على حمارة النسيان
أبحث فى تزاحم الأجساد والألوان
والبلدان

عن ذلك الإنسان

إن القصيدة من خلال هـذا النفس الطويل تقدم قناعا من أقنعـة الصورة ، يبدو الخيط فيه متشـابكا مضفورا ، ولكنه عنـد التأمل لا يبدو معقـدا مغلقا ، وهو قناع ينضـم إلى بقية الأقنعة الأخرى لكى يـؤكد غنى الإمكانيات التى تملكها الصـورة فى القصيدة الحديثة والتى تستطيع من خـلالها أن تصل بالشاعـر إلى جوهر الأشياء ، وتصـل بنا إلى جوهر الشـاعرية عنده ، وتصلح مدخلا هاما لمناقشة فن الشعر فى القصيدة الحديثة .

إن قصائد الـديوان التـى تستحق الـوقوف أمامهـا كثيرة ، فنحن مـع شاعـر يحب أداته ويخلص لها ، والملاحظات التى يمكـن رصدها على الديوان لا تقلل من هـذه القيمة الثابتة له ، وأنا أدعو القارئ إلى أن يقبل على قراءة هذا الديوان وألا يبخل عليه بجهد التأمل الذى يستحقه وأعده ألا يخرج خالى اليدين من المتعة بنمط جيد من أنماط القصيدة الحديثة .

المـراجع

جون كوين : بناء لغة الشعر : ترجمة د . أحمد درويش ـ مكتبة الزهراء ـ القاهرة ١٩٨٥ .

أحمد عبد المعطى حجازى : ديوان عبد المعطى حجازى ـ دار العودة ـ بيروت ١٩٨٢ .

محمود حسن إسماعيل : قاب قوسين ـ القاهرة ١٩٦٤ .

هكذا أغنى ـ القاهرة ١٩٣٧ .

أمل دنقل : الأعمال الكاملة ـ القاهرة ١٩٨٤ .

فاروق شوشة : الأعمال الكاملة ـ القاهرة ١٩٨٥ .

فكتور هيجو : « غدا من الفجر» : ترجمة د . أحمد درويش .

مجلة البيان الكويتية ـ يونيه ١٩٧٨ .

حامد طاهر : ديوان حامد طاهر ـ القاهرة ١٩٨٤ .

د . أحمد هيكل : مقدمة ديوان « ثلاثة ألحان مصرية) ـ القاهرة ١٩٧٠ .

د . محمود الربيعى : مقدمة ديوان « نافذة فى جدار الصمت» ـ القاهرة ١٩٧٥ .

أحمد درويش : الأدب المقارن النظرية والتطبيق القاهرة ١٩٨٤ .

جورج بوفون : مقال فى الأسلوب : ترجمة أحمد درويش

« مجلة فصول » القاهرة ١٩٨٥ .

عبد الفتاح شهاب الدين : مجموعة شعرية : سلسلة مواهب (تحت الطبع)

فؤاد مغنم : ديوان فصول من كتاب الليل : سلسلة « إشراقات أدبية» .

صلاح والى : ديوان « تداعيات العشق والغرام» سلسلة إشراقات أدبية .

ناجى عبد اللطيف : ديوان « اغتراب » سلسلة إشراقات أدبية .

(1) R. Barbes. Le degré zreo de L, écriture paris 1982.

(2) Granger : Essaì Sur La Philosophie du Style Paris 1973.

(3) J.L. Joubert. la Poesè paris 1977.

(4) R, jakobson. Huit questions Poetiques Paris 1977.

(5) J. P. Sarre, qu' est - ce que La Litterature Paris 1956.

(6) Gabrile. Germain : La Poésie Corps et àme. Paris 1973.

الفهرس

الموضوع | الصفحة

رقم الإيداع ٩٦/٩٩٠٣٠
I.S.B.N. 977 - 09 - 0355 -8

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت. ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس. ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت . ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

في النقد التحليلي
للقصيدة المعاصرة

□ غلبت على كثير من دراسات النقد الأدبى الحديث النزعة التنظيرية التى تقترب فى معظم الأحايين من النزعة التجريدية ، وتقترن غالبًا بصعوبة الوسائل ودقة الأساليب ، والاتجاه نحو الغموض الذى يصرف « المثقف العام » عن اللجوء إلى علم يستعين به على تجلية غموض النص الأدبى فيجده ـ فى بعض الأحايين ـ أشد غموضا منه .

□ وهذا الكتاب محاولة لتلافى بعض هذه السلبيات وإعادة فتح الحوار مع المثقف العام والمتخصص فى آن واحد ، وذلك من خلال اللجوء إلى التطبيق والانطلاق منه لتشكيل ملامح قضية نقدية شعرية معاصرة .

□ لقد ناقش الكتاب عشرة شعراء معاصرين ، يمثلون أربعة أجيال متعاقبة متداخلة ، وأثار من خلال نصوصهم أهم عشر قضايا تشغل مبدع الشعر المعاصر وناقده وقارئه .